

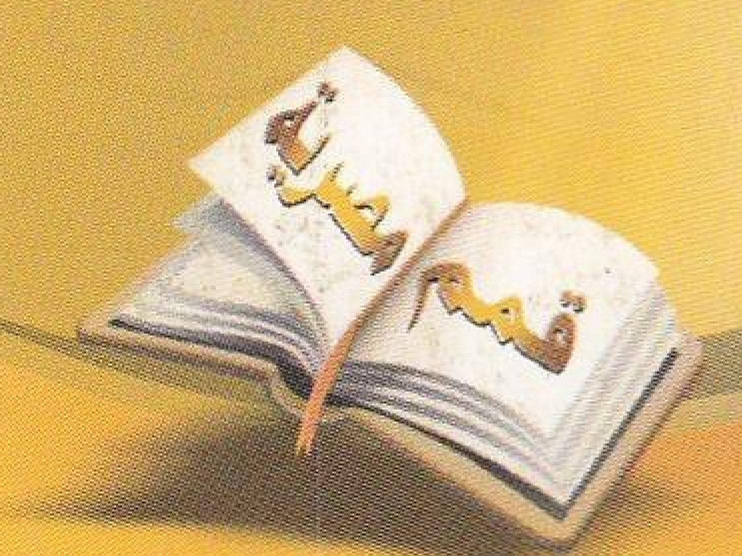




المشير أحمد إسماعيل

من الميلاد حتى النصر

د/محمد الجوادى



السلسلة الثقافية لطلائع مصر (٦٣)

يوليو ٢٠٠٩

قمم مصرية



المشير أحمد إسماعيل

من الميلاد حتى النصر





المجلس القومي للشباب

الإدارة المركزية للطلائع

السلسلة الثقافية
لطلائع مصر

المراسلات

المجلس القومي للشباب

شارع ٢٦ يوليو ، ميدان سفنكس

تليفون وفاكس: ٣٣٤٦٧٣٦٧

Web: www.alshabab.gov.eg



رئيس مجلس الإدارة

أحمد أنيس

رئيس التحرير

ياسر رزق

مدير التحرير

عبدالناصر عيسوى

جرافيك

إسلام عيد

تنفيذ

حسام عنتر

المشير أحمد إسماعيل

من الميلاد حتى النصر

د. محمد الجوادي

العدد ٦٣

من السلسلة الثقافية لطلائع مصر

صادر مع مجلة الإذاعة والتليفزيون

١١ رجب ١٤٣٠هـ - ٤ يوليو ٢٠٠٩

مقدمة

لم يكن النصر الذي حققته القوات المسلحة بقيادة أحمد إسماعيل في السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م، بمثابة أوَّل أمجاده العسكرية، لكنه كان تتويجًا لهذه الأمجاد التي أرادها الله تكريما لحياة رجل من المجاهدين المخلصين، ذلك أن أحمد إسماعيل، ويا للمصادفة، كان هو نفسه قائد جيش الدفاع عن الجبهة في أعقاب يونيو عام ١٩٦٧، وكان هو نفسه قبل ذلك القائد الذي تسلم بورسعيد بعد عدوان عام ١٩٥٦، وكان هو نفسه قبل هذا مشاركًا مع هيئة المفاوضات التي عقدتها الثورة مع البريطانيين وبعدها أصبح قائدًا للكتيبة السابعة مشاه، وبهذه الصفة تسلم أول معسكر تخلَّي عنه البريطانيون بمقتضي المعاهدة، وهو معسكر الشلوفة، وقبل هذا وذاك كان قائد الدفاع عن رفح

والعريش في عام ١٩٤٨، وكان قبل ذلك وبعد كل ذلك وفي أثناء كل ذلك جنديا من خيرة الجنود المصريين، وقائدا من صفوة القادة العرب.

وقد أنشأ أحمد إسماعيل الصاعقة، كما شارك في إنشاء القوات البرية، كما أنه هو الذي نظم الجبهة بعد ١٩٦٧ في جيشين: الثاني والثالث، وتولّى قيادتهما إلى أن استتبّت أمورهما.

هو واحدٌ من النوادر الذين تدرّجوا في مواقع القيادة العسكرية رتبة رتبة، ودرجة درجة، وموقعًا موقعًا، وتشكيلاً تشكيلاً، وهو أمرٌ نادر، وبخاصة في الحقبة التي قضاها أحمد إسماعيل في قواتنا المسلحة، ولكن أحمد إسماعيل كان هو الآخر رجلاً نادرًا.

وقبل أن يلقَي الرجل ربَّه بقليل، صدرت مجلة الجيش الأمريكي وقد وضعت صورته ضمن خمسين من كبار

قادة العالم العسكريين الذين أضافوا إلى استراتيجيات عالمنا المعاصر، بيد أننا لو أعدنا النظر في هذا الأمر بعد مضيّ سنوات عديدة على رحيل أحمد إسماعيل لاكتشفنا أن مكانة الرجل في التاريخ العسكري على مستوي العالم لا تزال أكبر من هذا بكثير، ذلك أنه كان القائد الذي عزف أروع سيمفونية كتب لها الخلود في تاريخنا المعاصر وفي تاريخ العلم العسكري أيضا.

توفي أحمد إسماعيل في السابعة والخمسين من عمره، لكن كثيرًا من الذين يشاهدون صُوَرَهُ لا يُصدّقون أن الرجل كان لا يزال في هذه السن، وكأنما كانوا يتصوّرون أن يجدوا في سنه ما يوازي جلائل أعماله، وعظمة انتصاراته، ولكن ملامح وجه الرجل كانت مع هذا تصدق ظنهم، ولكن يبدو أن الفتوة الحقيقية كانت تسري في دمه على الدوام.

اختار أحمد إسماعيل لنفسه أعظم الطرق للوصول إلى المجد: الإجادة والمثابرة على الإجادة، فقد ظلّ طيلة

حياته يُتقن كل عمل يتولاه، ويعمل على أن يتلافى كل تقصير، مهما كلفه ذلك الحرص من وقت وعرق وصحة وجهد. كان مُجِدًّا في دراسته، وكان متفوقًا في عمله، وبلغ الأمرُ به في ذلك الشأن أنه تقدم قبل حرب لامتحانين في وقت واحد، الأول امتحان الالتحاق بكلية أركان الحرب، والثاني امتحان مسابقة لاختيار ضابط مصري واحد لبعثة عسكرية في أمريكا، ونجح في الامتحانين وكان ترتيبه الأول في المسابقة، لكنه آثر الالتحاق بكلية أركان الحرب، وترك بعثة أمريكا للثاني في الامتحان.

ولما كان أحمد إسماعيل قائدًا للكتيبة السابعة مشاة، حققت هذه الكتيبة تفوقا رائعًا على كتائب الجيش الأخرى، وكانت كتيبته تسمى «الكتيبة ذات العلمين» تعبيرًا عن تعدد الجوائز التي حصلت عليها.

وفي أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣، كان الرئيس السادات يتحدث في مؤتمر صحفي عقده في دمشق، فسأله واحد

من رجال الصحافة: هل سيعزل أحمد إسماعيل؟ ولم يكن الصحفي يعتمد في سؤاله علي أخبار أو شائعات، وإنما كان يعبر عن خبرته بالسلوك الذي سيطر علي ساسة القرن العشرين بعزل القواد العسكريين بعد انتصارهم، واستنكر الرئيس السادات علي الصحفي سؤاله، وأتبع استنكاره بقوله: إن الأمة العربية لم تنجب مثل أحمد إسماعيل، لا في معلوماته العسكرية، ولا في رباطة جأشه خلال الحرب.

والواقع أنه لم يكن في تاريخنا الوطني كله من خرج إلى النور القوي الأخاذ على حين فجأة مفاجئة للجميع، وبقي فيه بقوة ثابتة واثقة، على نحو ما خرج هذا الرجل العظيم.

وقد ظهر أحمد إسماعيل في النور، وبقي، وسوف يبقى فيه أبدًا، مهما حاول بعض الناس على اختلاف مواقفهم، أن يقللوا من شأن حرب أكتوبر أو ما بعدها أو ما قبلها، ومهما تقادم الزمن، ومهما تغايرت التحالفات فنصر

أكتوبر هو «النصر الوحيد» في التاريخ العربي المعاصر، وهذه هي الحقيقة، ولك أن تتصوَّرها كيفما شئت، لكن تصوُّرك لا يغير من أمرها شيئًا.

تبقى حرب أكتوبر ١٩٧٣، في الوجدان العربي بمثابة لحظات فساعات فأيام مهَّدت لعصر من المجد لم يكن أهله يترقبونه إلا بعد حين، فجاءتهم هذه الحرب المجيدة بمجد عالٍ مفاجئ غير متوقع ولا منتظر ولا مأمول، وفاجأتهم بهذا المجد جنودُ ملحمة رائعة رزقوا من أهل القيادة بثلة من أصحاب اليمين، وقد تعاون هؤلاء على عملهم، وعزفوا جميعًا لحن هذه الحرب في آن واحد، فاجتمعت قوتهم بعضها إلى بعض، في قوة من النظام والتنظيم ضاعفت من قدْر وقيمة إنجاز القوات، وتلاشت كل الأساطير الإسرائيلية حين بزغ نورُ الحق أو حين بزغ نور قوة الحق، في سيمفونية رائعة كان كل أصحابها على اختلاف مواقعهم وآلاتهم قد تضافروا وتآزروا من أجل الفوز.

وكان المايسترو الذي قاد عَزْف هذه المجموعات المتآزرة هو ذلك الرجل الهادئ الصامت الساكن إلا من إصبع يضبط به ذلك التناسق الذي لا يمكن للعزف أن يتم بدونه، وقد كان هذا القائد بالإضافة إلى تحليه بصفات المايسترو الصامت الذي لا يملأ الدنيا صياحًا أو ضجيجًا وإنما يملؤها عزفًا، كان أيضا نموذجًا للقائد الصابر الذي لم يرتفع صوت أدائه إلا حين أتيح له شعاع الأمل الجسور.

كان أحمد إسماعيل نموذجًا للكفاءة، تعمل طويلاً من دون أن تقفز إلى المواقع الأولى، ولا تحاول أن تلفت النظر إلى إنجازها أو أحقيتها في هذه المواقع الأولى، وقد كان من حسن حظ هذا الوطن الذي نعيشه أن وجد فيه في الجيل السابق عدد كبير جدًّا من هؤلاء المجيدين الذين كانوا يجمعون إلى هذا الخلق في الإجادة والدأب على التجويد أنهم كانوا يمشون على الأرض هونًا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما. وكان هذا من حُسن حظ هذا الوطن، وإن لم يلق هؤلاء جميعًا تقديرًا خيرًا من ذلك التقدير العظيم

الذي أتاهم به الله- وآتانا- فيما أحرز أحمد إسماعيل من النجاح في قيادة القوات المسلحة في نصر أكتوبر، وقد يوافقني القارئ على رأيي القائل إن نجاح أحمد إسماعيل لم يكن نجاح فرد، ولكنه كان نجاح خلق، وكان نجاح جيل قد لا يظفر الوطن بمثله بعد ذلك.

لم يكن أحمد إسماعيل مخترعًا، ولا زعيمًا، ولا سياسيًّا، ولا أول دفعته، ولا أعلم قومه، ولم يكن جبارًا، ولا ديكتاتورًا، ولا معبودًا جماهيريا، ولا صاحب دعوة. لكنه- مع ذلك- حقق بنجاح وفي هدوء، أقصى ما يمكن تحقيقه من الأعمال العظيمة، ونال من العظمة ما فاق به كل هؤلاء جميعًا، وقد كان ما حقَّق الرجل من هذا كله فوق كل ما يمكن لمحلل أن يتخيَّله، وربما يلجأ بعضُ ذوي الغرض إلى إنكار قيمة مثل هذا الفضل أو إنكار القدر أو إنكار السبب والنتيجة، ولكن الذين يؤمنون بأن الإخلاص يصنع أعظم المعجزات، لا يقعون في مثل هذا، والذين

يبحثون في تراث الجماعات الإنسانية السابقة يجدون قولاً يقول: ما أعظم الخير الذي يمكن صنعه في العالم، لو رغب كل قادر على الخير عن إسناد الفضل إلى نفسه. وقد يكون فهم هذا القول مدخلاً إلى فهم سر عظمة رجل، قد لا يكون صاحب لحن النصر مائة في المائة، وقد لا يكون صاحب أيِّ دور فيه إلا الدور الذي من دونه لم يكن لحن النصر ليعزف على هذه الصورة، أعني دور المايسترو.

المؤلف

من الميلاد حتى رياسة الأركان

ولد المشير أحمد إسماعيل في الرابع عشر من أكتوبر سنة ١٩١٧، لأم من حي السكاكيني، وأب من حي باب الخلق. وقد ترقى الأب في سلك البوليس حتى صار مأمورًا للإدارة بأقسام الشرطة، ثم استقر في القاهرة سنة ١٩١٤، مأمورًا لضواحي العاصمة.

وكان للمشير أخَوَانِ وخمسُ أخوات، فأمَّا الأخُ الأكبر فهو الدكتور محمد فؤاد، وكان مديرًا عامًّا بوزارة الصحة إلى أن أحيل إلى التقاعد، وكان يكبر المشير باثني عشر عامًا، فكان المشير ينظر إليه كوالد، وأما الأخ الثاني فهو اللواء محمود أنيس، وكان يصغر المشير بثلاثة أعوام، ولم يكن أحد يصغر المشير من إخوته سواه.

في كلية التجارة

ولما انتهي المشير من دراسته الابتدائية في عابدين، التحق بمدرسة شبرا الثانوية، فأظهر تفوقا في الدراسة ومهارة في لعب كرة القدم، ولم يلبث أن كان واحدا من فريق الكرة بالمدرسة، ثم حصل على البكالوريا سنة ١٩٣٤، فذهب يبغي اللحاق بالكلية الحربية، فلم تقبله الكلية، فحطَّ رحاله في كلية التجارة، ولكنه كان يذهب إلى الكلية الحربية كل حين، لاعبًا في فريق التجارة حين تقام المباريات بين فريقي الحربية والتجارة، فكأنما كان في التجارة وعينه على الحربية، إلى أن فتحت الكلية الحربية أبوابها في السنة التالية، وتقدم المشير، فلم يكن حظه في الثانية خيرًا من حظه في الأولى، فمضى في دراسته حتى اجتاز السنة الثانية في كلية التجارة بنجاح، وتقدم إلى الحربية فلم يواته الأمل للمرة الثالثة، فعاد ليتلقى دروس السنة الثالثة في كلية التجارة، حتى فتحت الكلية الحربية أبوابها في ربيع سنة ١٩٣٧، فقبلت أحمد إسماعيل في السابع عشر من مارس طالبا بين طلابها.

أول وسام

تجلّى حُبُّ أحمد إسماعيل للعسكرية، منذ كان طفلا في السابعة من عمره، يعيش مع أسرته قريبًا من قصر عابدين، فكان من عادته أن يخرج عصر كل يوم، فينتظر طابور حرس الملك تتقدَّمه الفرقة الموسيقية العسكرية وهي تطوف بميدان عابدين حتى شارع حسن الأكبر، فيمشي خلفها مقلدًا خطوات الجنود، حتى كان ذات يوم نسي فيه الطفل الصغير نفسه، ولم يلتفت لسيارة كانت تمر بسرعة بالقرب منه، ولم يتنبه السائق أن وراء هذا الطابور- الذي انتظره حتى عبر- طفلا صغيرًا، وصُدم المشير وكسرت ساقه اليسرى، فنال بهذه الإصابة- على حدِّ تعبيره فيما بعد- أول وسام على إيمانه بالعسكرية.

صبي جاد

وكان المشير في صباه جادًّا ميالاً للصرامة والنظام، دقيقًا في كل تصرفاته، لا تشغله اهتماماتُ الفتيان من أضرابه، بل كان يبحث عن كتب التاريخ وسير قادة الإسلام ليقرأها،

ولما كان في دراسته الثانوية كان حريصًا على اقتناء الكتب التي تروي قصص القادة العسكريين وحروب القرون الماضية، فإذا قرأ حرص على أن يسجل تعليقاته على قراءاته، ثم يذهب فيناقشها مع أخيه الأصغر وأقرانه.

زمالة السادات

وعرف المشير صديقه الرئيس السادات في شبرا الثانوية سنة ١٩٣١ ، حين جمعهما البُعد عن لهو الصبا، والاعتداد بالنفس، ثم كان السادات شاويشا على أحمد إسماعيل وجمال عبد الناصر، وهُمْ طلبة في الكلية الحربية، لأن الحظ واتاه في الالتحاق بالكلية الحربية قبلهما بسنة، وتخرج أحمد إسماعيل في الكلية الحربية في يوليو سنة ١٩٣٨، فبعث به إلى منقباد، التي سبقه إليها الرئيس السادات، وفي منقباد كانا ينامان في حجرة واحـدة من ثكنات الكتيبة الرابعة مشاة، ثم انتقل الرجلان معًا إلى السودان، وجمعهما الجيش مرة أخرى في الصحراء الغربية ثم في سيناء قبيل الثورة.

أول الخيط

وفي أول يوليو سنة ١٩٣٨ تخرج أحمد إسماعيل في الكلية الحربية برتبة ملازم، فعمل ضابطًا للاستطلاع، وقائدًا لفصيلة في الكتيبة الرابعة مشاة العاملة في منقباد، وعرف المشير- وهو ملازم- عزيز المصري، الذي أعجب به وتوسم فيه الخير وشمله بتوجيهاته في هذا العام، وفي أول مايو سنة ١٩٤٠ رُقي إلى رُتبة ملازم أول، وظل في عمله حتى اختير في السادس والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤٠ قائدًا لسرية بلواء الأساس، ثم مدرسًا بمدرسة الأسلحة والذخيرة في التاسع والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٤١، وفي أثناء ذلك مُنح رتبة النقيب في الخامس من سبتمبر سنة ١٩٤٢.

وبعد تخرجه بسبع سنوات بالضبط، اختير النقيب أحمد إسماعيل في أول يوليو سنة ١٩٤٥، ليشغل منصب أركان حرب الكتيبة الثانية مشاة، ولم يُتم الرجل في هذا

المنصب سنتين حتى اختير في العشرين من يونيو سنة ١٩٤٧، مُدرِّسًا بمدرسة المشاة، ثم ترقى لرتبة الرائد في السابع من يوليو سنة ١٩٤٨، وتولى قيادة سرية في رفح في السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٤٨، وبعد ذلك بقليل اختير أركان حرب لواء مشاة في أول إبريل سنة ١٩٤٩.

الأول على الإنجليز

وفي أثناء ذلك اختير أحمد إسماعيل ليكون واحدًا من أعضاء بعثة تدريبية في دير ياسين بفلسطين، وكانت الحكومة الإنجليزية هي القائمة على أمر هذه البعثة، لكن هذا لم يكن حائلا بين أحمد إسماعيل وبين احتلال موقع الأولية على زملائه من المصريين والإنجليز.

وسافر أحمد إسماعيل بعد ذلك في دورة تدريبية إلى إنجلترا، وعاد بعد أن اجتاز هذه الدورة قبل حرب

سنة ١٩٤٨، وشارك أحمد إسماعيل في حرب سنة ١٩٤٨ مشاركة فعّالة، فأقام خطا دفاعيا حصينا في رفح كان محل اهتمام ودراسة القيادات العسكرية بعد الهدنة، ثم قاد أحمد إسماعيل الدفاع ضد الهجوم الصهيوني على العريش.

أركان حرب

وما إن انتهت هذه الحرب حتى الْتَحَقَ المشير بكلية أركان الحرب، وتخرج فيها سنة ١٩٥٠، يحمل درجة الماجستير في العلوم العسكرية، وكان ترتيبه الأول، وفي يمينه شهادة تقدير لكونه أحسن طالب.

ويأتي الحادي عشر من فبراير سنة ١٩٥١، فيحصل أحمد إسماعيل على رتبة البكباشي، المقدّم حاليا، ثم يختار هذا البكباشي مدرسًا بكلية أركان الحرب التي تخرج فيها عن قرب، وظل في عمله هذا حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٣، وفي أعقابها يختار أحمد إسماعيل لتولي أركان

حرب فرقة مشاة في السادس من أغسطس سنة ١٩٥٢، ثم يعود بعد ثلاثة أسابيع في أول سبتمبر سنة ١٩٥٢ للتدريس في كلية أركان الحرب.

صفقة الأسلحة التشيكية

ويتولى أحمد إسماعيل قيادة الكتيبة السابعة مشاة، في السابع من سبتمبر سنة ١٩٥٣، ويتهيأ له من خلال هذا الموقع القيادي أن يشارك في صنع أخطر الأحداث التي شكلت مستقبل هذا الوطن، إذ يختار عضوًا في لجنة المفاوضات العسكرية مع بريطانيا سنة ١٩٥٤، ثم يشترك في صفقة الأسلحة التشيكية سنة ١٩٥٥، ويعود ليتولى بعد وصول الصفقة تكوين أول تشكيل مقاتل وفق عقيدة القتال الشرقية.

نشأة الصاعقة

وفي اليوم الأول من يناير سنة ١٩٥٥، حصل أحمد إسماعيل، على رتبة العقيد، وفي هذا العام فكّر العقيد

أحمد إسماعيل- وهو يومئذ قائد الكتيبة السابعة مشاة- في إنشاء نواة الصاعقة المصرية، واختار لها مجموعة من أكبر ضباط الرتب الصغيرة إيمانًا وجرأةً وتفوقًا في العُلوم العسكرية دراسة وتطبيقا، ووجّه الرجلُ الدعوةَ لهؤلاء الضباط على حفل إفطار فاخر فوق سدٍّ عالٍ في «أبو عجيلة»، اسمه «سد الروافع»، وارتدى الضباطُ أفخر ما عندهم من الثياب، وكانت المفاجأة التي أعدّها لهؤلاء هي تدريب عنيف للصاعقة، إذن كان الإفطار وهميًّا، وبدلاً منه أصدر إليهم التعليمات أن يقفزوا من علو ٢٥ مترًا بكامل ملابسهم الرسمية في الماء، وهكذا كانت نشأة نواة الصاعقة في القوات المسلحة، وقامت الصاعقة، في العام نفسه، بهجمات خاطفة على العدو الإسرائيلي، بتخطيط من العقيد أركان حرب أحمد إسماعيل علي.

يتسلم بورسعيد

وفي الثاني من إبريل سنة ١٩٥٦، تولَّى أحمد إسماعيل قيادة اللواء الثالث مشاة، وكان هذا اللواء من الألوية

المتمركزة في سيناء، وشارك أحمد إسماعيل بلوائه في التصدِّي للعدوان الثلاثي حين وقع في التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٥٦، واستطاع المشير أن يتقدم بلوائه حتى وسط سيناء، واشتبك في عدة معارك تصادمية مع العدو، ثم صدرت التعليمات له بالتوجه إلى مدينة بورسعيد، وكتب له الله أن يكون هو القائد الذي يتسلم مدينة بورسعيد بعد ما خرج منها آخر جندي أجنبي، ورفع أحمد إسماعيل علم مصر على بورسعيد، في أواخر ديسمبر سنة ١٩٥٦، وفي هذه الحرب تأكَّدت موهبة أحمد إسماعيل في صعيد آخر حين مارست قوات الصاعقة- التي كان قد أنشأها في العام السابق- عملياتها ضد العدو الإسرائيلي طوال معارك بورسعيد، على أعلى درجة من الكفاءة والاقتدار.

أكاديمية فرونز

وما إن انتهت حرب سنة ١٩٥٦، حتى الْتَحَقَ أحمد إسماعيل بأكاديمية فرونْز العسكرية في روسيا، وتخرج

فيها سنة ١٩٥٧، مشهودًا له بالكفاءة والامتياز، ورقي إلى رتبة العميد في اليوم الأول من يناير سنة ١٩٥٨، ثم عاد إلى التدريس، حيث اختير كبيرًا لمعلمي الكلية الحربية في الحادي والثلاثين من مارس سنة ١٩٥٩، وأتيح له أن يواصل مهمة إعداد الجيل الجديد من الضباط المصريين في الكلية الأم بعد أن قام بالتدريس من قبل في ثلاث مدارس: مدرسة الأسلحة والذخيرة، ومدرسة المشاة، وكلية أركان الحرب.

في شعبة العمليات

واستمرَّ العميد أحمد إسماعيل في هذا الموقع من مواقع الأستاذية سنة ونصف السنة، وبعدها اختير رئيسًا لواحد من أقسام شعبة العمليات في الثاني عشر من سبتمبر سنة ١٩٦٠، وهكذا أتيح للرجل أن يضيف إلى خبراته مجالاً حيًّا من مجالات التخطيط الميداني.

أول تشكيل مقاتل

وفي الخامس والعشرين من يونيو سنة ١٩٦١، تولى- رحمه الله- رئاسة أركان حرب المنطقة العسكرية الشرقية على سبيل النيابة، وفي أثناء ذلك منح رتبة اللواء في اليوم الأول من سنة ١٩٦٢، ثم توالت المناصب القيادية على أحمد إسماعيل، وتوالى أحمد إسماعيل على تولِّي هذه المناصب، فعُين قائدًا للفرقة الثانية مشاة في السادس من يوليو سنة ١٩٦٢، فأعاد تشكيل هذه الفرقة على أحدث ما يكون التشكيل، فكان لمصر بها أول تشكيل مقاتل بالأسلوب الحديث.

وقد ظهر أثر هذا التشكيل في حرب السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣، إذ كانت هذه الفرقة التي استطاعت أن تدمر اللواء ١٩٠ بأكمله، وأن تأسر قائده عساف ياجوري، ولم تكن هذه النتيجة مفاجئة لأحمد إسماعيل الذي كان لا يفتأ يقول إن هذه الفرقة فرقتي، وأودّ أن أرَى جهدها في هذه الحرب.

رئيس هيئة التدريب

ثم أنشئت قيادة القوات البرية، وأسندت إلى أحمد إسماعيل مهام منصب أركان هذه القوات، وبقي متوليًا المهام الجسيمة لهذا المنصب، حتى اختير في الرابع عشر من مايو سنة ١٩٦٥، رئيسا لهيئة تدريب القوات البرية، وهو المنصب الذي كان أحمد إسماعيل يشغله حين قامت حرب سنة ١٩٦٧، أو حين وقعت نكسة سنة ١٩٦٧، لأن الحرب لم يتح لها في الحقيقة أن تقوم.

قائد الجبهة

وتولَّى اللواء أحمد إسماعيل رئاسة هيئة تدريب القوات المسلحة أيضا في الرابع عشر من يونيو سنة ١٩٦٧، حين أعيد تشكيل القيادة بعد النكسة مباشرة، ولكنه لم يمكث في هذا المنصب إلا أسبوعين ريثما تمت إعادة تنظيم القوات المسلحة بعد الحرب، وأسندت إليه في أول يوليو سنة ١٩٦٧، قيادة المنطقة العسكرية الشرقية وقيادة الجبهة.

أول خط دفاعي وإيلات

وقعت النكسة، وتأثر أحمد إسماعيل بالطبع أشد التأثر، وانعكس ذلك على نفسيته وسلوكه وعلاقاته، فكان يرفض الخروج إلى أي مكان حتى تزول آثارُ الحرب، وتولَّى أحمد إسماعيل- كما ذكرنا- قيادة الجبهة في أعقاب الحرب، فأسَّسَ أول خط دفاعي في الضفة الغربية لقناة السويس، وقاد أولى المعارك وأكبرها بعد حرب يونيو في رأس العش والجزيرة الخضراء، ووضع خطة إغراق المدمرة إيلات، وكان لإغراق هذه المدمرة أكبر الأثر في رفع الحالة المعنوية للمقاتلين والشعب على حدٍّ سواء، ولم تكن معركة رأس العش في الواقع إلا بداية تطويرنا للبناء، ذلك أنه كان يُدرك تمام الإدراك مدى معاناة الجيش من حالة نفسية صعبة مَرَدُّها أنه لم يأخذ فرصته ليقاتل في يونيو سنة ١٩٦٧، وكان المشير لا يفتأ يؤكد أن الجيش المصري لم يهزمه اليهود في ٥ يونيو، وإنما هزمه الذين أرسلوه إلى المذبحة بغير خُطة وبغير استعداد، وحدث أن الرئيس جمال

عبد الناصر اتصل به ذات مرة، وقال له: إن الأمم المتحدة ترجو أن نوقف الضرب، واستمهل أحمد إسماعيل الرئيس الراحل قائلاً: «أمهلني ساعتين حتي نتم معركتنا، وبعدها نوقف الضرب».

مكتب ميداني في ملجأ

وضرب أحمد إسماعيل المثل والقدوة لمساعديه من القادة في التقشف والتحمُّل، فاتخذ لنفسه- وهو قائد الجبهة- مكتبًا ميدانيًّا صغيرًا داخل ملجأ بسيط، واستطاع من هذا الموقع أن يبذل جهده في إعادة بناء القوات المسلحة، فجمع شتات القوات المنسحبة من سيناء، وأعاد تنظيمها وتدريبها وتسليحها، في الوقت نفسه الذي استطاع فيه مواجهة العدو ومنعه من التمادي في عدوانه.

والنصر بعد ذلك مؤكد

ويروي واحد من المراسلين العسكريين أنهم زاروا الجبهة في يناير سنة ١٩٦٨، وكان أحمد إسماعيل قائدًا للجبهة

فاستقبلهم، وظل يستمع إليهم في صبر وأناة، ولم يكن حديثهم ليتعدَّى عبارات اليأس يتبادلونها واحدًا بعد آخر، فلمَّا انتهوا مما قدروا عليه من حديث اليأس الذي استمع إليه المشير حتى النهاية، قال لهم: «إنكم تُعَبِّرون عن أنفسكم، ولا شأن لجنودي باليأس والتشكيك، لأن واجبنا وقدَرنا أن نجتاز الهزيمة ونحقق النصر لأمتنا، لأن الجندية هي الرجولة أولاً، وهي البذل والعطاء ثانيًا، والنصر بعد ذلك مؤكد». ثم التفت إليهم وقال: «على كل منكم أن يحاسب نفسه دائمًا: هل أدَّيت عملي؟ ولا يكفي هذا، بل عليه أن يسأل نفسه هل تفوقت في عملي؟ بهذا المقياس فقط يمكن أن نجتاز هذه الهزيمة، ونهزم عدونا».

وقد عَبَّر الرئيس السادات عن جهود أحمد إسماعيل في هذه الفترة بأبلغ عبارة، حين قال في البيان الذي نعاه فيه: «ولقد كان أحمد إسماعيل علي، في أيام الهزيمة قائد خط الدفاع الأخير، وكان في أيام النصر قائد خط الهجوم الأول».

قصف خط بارليف

ثم تولَّى أحمد إسماعيل رئاسة هيئة عمليات القوات المسلحة في الخامس عشر من إبريل سنة ١٩٦٨، فأشرف على تخطيط عمليات الاستنْزاف الرئيسية ووضع أول خطة عسكرية لقصف خط بارليف بالمدفعية الثقيلة على طول الجبهة، وهكذا بدأت مرحلة الاستنْزاف في معاركنا ضد العدو.

يخلف عبد المنعم رياض

وظل أحمد إسماعيل يعمل رئيسًا لهيئة العمليات مع الفريق أول عبد المنعم رياض رئيس الأركان، والفريق أول محمد فوزي وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة، حتى اختار الله عبد المنعم رياض إلى جواره مع الشهداء في التاسع من مارس سنة ١٩٦٩، واختير أحمد إسماعيل رئيسًا لأركان حرب القوات المسلحة المصرية. وبحكم منصبه، اختير أمينًا عامًّا مساعدًا للجامعة العربية للشئون

العسكرية، وواصَلَ الرجلُ في موقعه الجديد ما بدأته القيادة المصرية من قبل، بمشاركته، من إعداد وتجهيز لقواتنا المسلحة، واستمرت معارك الاستنْزاف معبِّرة أروع تعبير عن روح مصر الأبية التي لا تهزم، وجاءت معارك العمق التي أراد العدو بها أن يبين عن مدى طول يده، فأبانت له مصر عن صمود رائع.

في حرب الاستنْزاف

وكان الرجل، طوال هذه الحرب، يظل ساهرًا في مكتبه لساعة متأخرة من الليل، انتظارًا لعودة أفراد الدوريات التي كانت تعبر قناة السويس وتهاجم مواقع العدو، فإذا اطمأن إلى عودتهم بكامل عددهم ذهب فنام قرير العين مستعدًّا ليوم آخر من الجهاد، وإذا علم أن واحدًا من هؤلاء الجنود قد استشهد عاد إلى منْزله ومعه الألم والقلق والحزن على روح هذا الجندي، ولم يكن القريبون منه يعرفون شيئا يحزنه ويؤثر في نفسه مثل سماعه لخبر استشهاد جندي من جنوده.

المواقع الهيكلية

وكان أحمد إسماعيل يشجع ضباطه وجنوده على الابتكارات والتفكير في طرق جديدة للهجوم والدفاع، ومن أهم الابتكارات التي تبناها الرجل في أثناء هذه الحروب فكرة «المواقع الهيكلية» وهي الفكرة التي كانت من أفكار عبقري العسكرية المصرية عبد المنعم رياض، وقد نجحت هذه الفكرة نجاحًا كبيرًا، وصارت مصيدة لهجمات العدو وغاراته، وأهدرت قيمة كثير من ضرباته.

الإعفــاء

ولكن أحمد إسماعيل لم يبقَ في موقعه هذا أكثر من ستة شهور، وكيف له أن يبقى في مثل هذا الموقع في ذلك الوقت الذي برزت فيه على السطح التعصُّبات، وتنافست مراكز القوى على إبراز مقدرتها على الحل والربط، واستصدر وزير الحربية قرارًا من الرئيس جمال عبد الناصر بعزل أحمد إسماعيل، وتعيين اللواء محمد أحمد صادق

رئيسًا للأركان، ونشرت الصحف اليومية هذا القرار صباح يوم الجمعة التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٩٦٩، وعلى الرغم من أن أحمد إسماعيل لم يكن معروفًا يومها لجماهير الشعب، إلا أن كثيرًا من الناس بدءوا يتساءلون فيما بينهم عن سر هذا القرار، وتصدّى صحفي مرموق للتعليل، فذكر أن السبب في عزل رئيس الأركان يرجع إلى أنه سَحَبَ قواتٍ من فوق ضفاف البحر الأحمر للتدريب، فجاءت إسرائيل بعدد من جنودها استطاعوا العبور إلى الضفة الغربية، والحقُّ أن أحمد إسماعيل كان بريئًا من هذه التهمة براءة الذئب من دم ابن يعقوب. وعلى الرغم من هذا، فإن الأقلام التي ذهبت تؤرخ لأحداث هذه الفترة، لم تجد ما يمنعها من أن تروي هذه الرواية، التي ثبت أن ليس لرئيس الأركان فيها وزر على الإطلاق، ولكن مأساة تاريخنا المعاصر أن الخلود كثيرًا ما يكون من حظ الروايات الأولى، التي يسكت عنها المظلومون فيها، لأنه ليس للرد بالحق عليها سبيل، في أوقات لا يكون فيها مكان إلا لصوت واحد.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي عُزل فيها أحمد إسماعيل وحيل بينه وبين أداء واجبه الوطني، فقد سبقتها محاولات أخرى لم تنته إلى مثل هذه النهاية.

الكونغو

وأولى هذه المحاولات كادت تذهب بالرجل إلى السلك الدبلوماسي. فمن الأدوار التي لعبها أحمد إسماعيل في القوات المسلحة مجهوداته في إنشاء القيادة العسكرية الإفريقية في أوائل الستينيات مع عدد من الثوار الأفارقة، وقد عقد لهؤلاء أول مؤتمر عسكري في القاهرة، ثم ابتعث أحمد إسماعيل إلى الكونغو مستشارًا عسكريًّا للرئيس لولومبا فيما بين مارس وسبتمبر سنة ١٩٦٤، وكان الستار الذي اتخذ له هو أنه في البعثة الدبلوماسية عضو لمصر في الكونغو، فلما انتهت مهمّة أحمد إسماعيل العسكرية، خُيِّرَ بين بقائه في وزارة الخارجية سفيرًا، أو عودته إلى الجيش، ففضّل العودة إلى الجيش المصري، على أن الذين

خَيّرُوه كانوا يودُّون لو أغراه طعمهم فعمل سفيرًا. وقد كانت هذه هي أولى محاولات إبعاد الرجل.

في درج مكتب عبد الناصر

وجاءت المحاولة الثانية في المرحلة التي اشتد فيها الصراع بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وشمس بدران سنة ١٩٦٦، وتقرّر إبعاد أحمد إسماعيل إلى منصب كبير في مؤسسة تعمير الصحاري، ولكن جمال عبد الناصر لم يوقع القرار، وإنما احتفظ به في درج مكتبه، ورَوَى الواقعة لأحمد إسماعيل في أعقاب النكسة.

وفي أعقاب حرب يونيو لم يبق أحمد إسماعيل خارج مواقع المسئولية إلا ثمانيا وأربعين ساعة، ريثما أعيد ترتيب الأمور في القيادة، وعاد ليتسلم قيادة الجبهة، وليكون الشخص الثالث في الجيش المصري بعد القائد العام الفريق فوزي ورئيس الأركان اللواء رياض.

وكان الرئيس السادات في يوغوسلافيا حين عُزل أحمد إسماعيل من رئاسة الأركان، ويروي مرافقوه أنه لما علم بالنبأ عَقَّبَ- وهو حزين-: «لا حول ولا قوة إلا بالله، خسارة والله، إنه كفاءة عسكرية نادرة».

معـاش الوزير

ولعل الرئيس جمال عبد الناصر نفسه أَحَسَّ بأن قرار إعفاء أحمد إسماعيل لم يكن في موضعه، وبخاصة أنه وقع هذا القرار وهو في حالة صحية استدعت راحته التامة، فقرَّر لأحمد إسماعيل بعد فترة قصيرة من عزله معاش وزير.

ولم يكن هناك من سبب لهذه المحاولات المتكررة لإبعاد الرجل إلا أنه عسكري ممتاز، وقيادي كفء، خالٍ من نقاط الضعف، ليس إلى السيطرة عليه من سبيل، وليس إلى احتوائه من منفذ، هدفه الأعلى خدمة وطنه دون تحيز إلى فريق أو تحزب إلى طائفة.

ولو بالأفارول

على أن الفترة التي ظل أحمد إسماعيل مُحالاً إلى المعاش فيها، ومُبعدًا عن الخدمة، كانت من أروع فترات حياته، ذلك أن الرجل لم يخلد إلى الراحة بعد إجهاد ولا إلى السكينة بعد جهاد، ولم يكف يومًا عن التقصي والبحث في المعارف العسكرية الجديدة وحوَّل مكتبه في منْزله إلى غرفة عمليات، وأخذ يُعِدّ الخطط للقتال، وانتهى من وضع خطة جسورة للمعركة، وكان ينوي إرسالها إلى الرئيس جمال عبد الناصر، لكنه خشي أن تفسر هذه الخطوة على أنها طلب استرحام للعودة إلى الجيش، واحتفظ أحمد إسماعيل بالخطة في درج مكتبه، وعبر لزملائه عن أمله فقال: «كل ما أطلبه هو أن يسمح لي بالعودة إلى الجيش لعبور القناة إذا وقعت الحرب»، وعبر لأسرته عن أمنيته في أن يرتدي «الأفارول» ويذهب ليحارب. ولكن الله الكريم والعليم بخفايا الصدور حقق لأحمد إسماعيل أضعاف ما تمنى.

أحمد إسماعيل وحرب أكتوبر

لما قام الرئيس السادات بحركته التصحيحية في الخامس عشر من مايو سنة ١٩٧١، كان جهاز المخابرات من الأجهزة التي قادها رؤساؤها إلى أن تدين بالولاء لمراكز القوى، ولم تكن هذه الأجهزة جهازًا ولا جهازين، ولكنها كانت أخطر أجهزة الدولة، ولكن الله سبحانه وتعالى كان أقوى من هؤلاء جميعًا، وانتصر الرئيس السادات، وشغل هذه المناصب بالوطنيين المخلصين، واختار أحمد إسماعيل ليكون رئيسًا للمخابرات العامة، وعاد الرجل الذي قضى حياته في خدمة الوطن بالقوات المسلحة، ليخدم الوطن أيضا على رأس جهاز المخابرات.

قاموس المخابرات

وكان أحمد إسماعيل يؤمن بأن مهمة المخابرات الأولى هي حماية المصريين من العدو، وأن أول ما ينبغي عليه

القيام به هو إعادة الثقة بين الجهاز والناس كل الناس، ومن هذا المنطلق استطاع أحمد إسماعيل أن يمسح كلمات «غسيل المخ» «إدارة التعذيب» و«السجن الحربي» من قاموس المخابرات العامة، ولم يكن هذا بالأمر السهل.

كان المشير يؤكد أنَّ جهاز المخابرات لن يكون في يوم من الأيام سيفا مسلطًا على رقاب الشعب العربي، لكنه سيكون السند والصديق المخلص لكل مواطن في الداخل، وفي الخارج، وهكذا استطاع أحمد إسماعيل أن يسهم في تحقيق إنجاز من أعظم إنجازات عهد الرئيس السادات، وهو القضاء على الحالة التي وصلت إليها العلاقات العربية- المصرية بسبب الأنشطة التي كانت المخابرات المصرية تقوم بها في داخل البلاد العربية.

المجتمع المفتوح

وكان أحمد إسماعيل- مع أنه العسكري القديم- يُلقن ضباطه في المخابرات ضرورة الإيمان بالحرية الفردية

والمجتمع المفتوح، ذلك أن حماية المجتمع ورفاهيته هما أهم واجبات المخابرات، ليس إليهما من سبيل لا يعطي للحرية الفردية دورها الرائد، وهكذا جعل أحمد إسماعيل، من جهاز المخابرات، مدرسةً حقيقية للوطنية التي تعتمد على العلم والمعرفة، والقراءة المستمرة، والمتابعة الدورية، وتتصف مع ذلك بالعفة والأمانة، ولا تنتظر المقابل إلا في إحساسها برضا الضمير وأداء الواجب وخدمة الوطن.

وتمكّن جهاز المخابرات العامة في عهد أحمد إسماعيل من ضبط أخطر قضايا التجسس، ولعل من أشهر هذه القضايا تلك التي يصورها فيلم «الصعود إلى الهاوية»، بل إن الجهاز لم يصل في عهد أي من رؤسائه إلى اكتشاف مثل هذا العدد الذي وصل إليه تحت قيادة أحمد إسماعيل، ولم تكن المسألة هنا مسألة كَمّ، ولكنها كانت مسألة كيف قبل أن تكون مسألة كم.

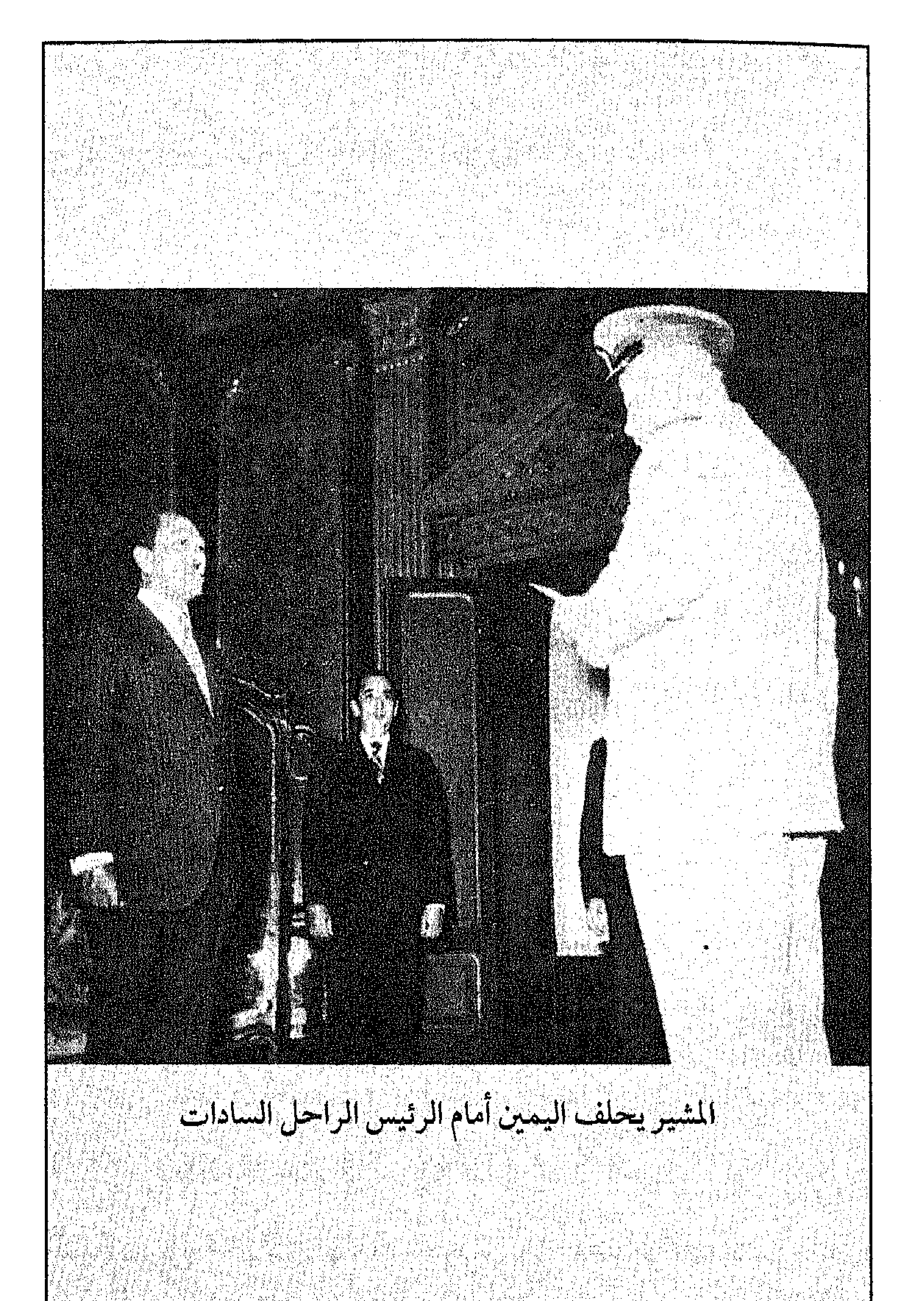
هل كان إرهاصًا؟

على أن كثيرًا من المراقبين السياسيين كانوا ينظرون إلى تعيين الرئيس السادات لأحمد إسماعيل مديرًا للمخابرات- على أنه تمهيد من الرئيس السادات لتولية الرجل أمور الجيش ريثما تتهيأ الأمور لذلك، ومن الأدلة التي يسوقونها على صحة هذا الرأي أن أحمد إسماعيل كان هو الرجل العسكري الذي رافق الدكتور عزيز صدقي رئيس الوزراء المصري إلى موسكو، بينما بقي وزيرُ الحربية في القاهرة، وعلى أية حال فلو كان هذا الذي فعله الرئيس السادات تمهيدًا فهو نعم التمهيد، نظرًا للعلاقة الوثيقة بين عمل الجيش وعمل المخابرات العامة.

ولعل أبلغ عبارة تقال في تصوير هذه العلاقة هي أن العمل في المخابرات العامة يمثل الخلفية السياسية والوطنية والداخلية ذات المستوى الرفيع التي لابد منها لقائد الجيش، وقد فطن الرئيس السادات إلى هذه العلاقة المهمة، بل قل

إنه كان أول من فطن إليها، وقد طبقها مع أحمد إسماعيل، ثم مع الفريق أول كمال حسن علي.

وعندما قويت عند الرئيس السادات مُبَرِّراتُ عزل الفريق صادق، وبخاصة بعد ما حدث من تقصيره في تبليغ القادة توجيهات الرئيس بشأن الاستعداد للحرب، وخوضه في الموضوعات السياسية وحديثه للجيش عن خلافاته مع رئيس الوزراء، وما طلبه من الأسلحة والمعدات في قائمة طويلة تحمل طابع التعجيز، عند ذلك استدعى الرئيس السادات أحمد إسماعيل، وأخذ يُحادثه في أمور مختلفة بينما هما سائران في حديقة بيت الرئيس، ثم سأل السادات المشير عن الصفات التي يراها واجبة فيمن يتولَّى وزيرًا للحربية، وأخذ المشير يسرد هذه الصفات، معبرًا عن رأيه، فلما انتهى من حديثه قال له الرئيس: «إن هذه الصفات تتوفَّر في شخصك، ولذلك اخترتك لهذا المنصب، استعدّ



المشير يحلف اليمين أمام الرئيس الراحل السادات

للمعركة وعلى بركة الله»، وطلب الرئيس أن يبقى الأمر سِرًّا عسكريًّا حتى يذيعه الرئيس.

وفي السادس والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٧٢ صدر قرار الرئيس بتعيين الفريق أول أحمد إسماعيل وزيرًا للحربية وقائدًا عامًّا للقوات المسلحة، وأدَّى المشير اليمين القانونية، وبدأ مهامَّه في الإعداد، وعاد الرجل- الذي عُزِلَ لواءً- برتبة فريق أوَّل، وخلف الفريق صادق في الوزارة، وقد خلفه الفريق صادق من قبل في رئاسة الأركان.

واجب واحد

ومنذ اليوم الأول ركَّز أحمد إسماعيل، على تعميق مفهوم العسكرية عند ضباطه وجنوده، وكان لا يفتأ يُكرِّر أنَّ على القوات المسلحة واجبًا واحدًا، وواحدًا فقط، هو أن تؤمر بالقتال فتقاتل، وهكذا أبعد الجيش عن مجرد التفكير في الخوض في أي مجال من المجالات التي طاب لكثيرين من القادة من قبله أن يزجُّوا بالجيش في غمارها.

قيمة المقـاتل

وأعطى أحمد إسماعيل للعسكري المصري قيمته الحقيقية في وطنه، وكان الرئيسُ السادات قد سبقه في هذا الخط بقراره الشجاع الذي اتخذه بطرد الخبراء السوفييت، ومن يومها أَحَسَّ رجالُ القوات المسلحة المصرية بذواتهم ومسئولياتهم الكاملة عن وطنهم، وبحريتهم في اتخاذ قراراتهم، وبكرامتهم على أرضهم، وبخبرتهم الحقيقية التي لم تكن تقلُّ عن خبرة هؤلاء الخبراء، وجاء أحمد إسماعيل ليكرِّر على مسامع العسكرية المصرية في كل موقع، أن السلاح بالجندي، وليس الجندي بالسلاح، ولم يكن غريبًا إذن ما أبداهُ هؤلاء الجنود في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣، حين وقفوا وجهًا لوجه أمام الدبابات تدمرها الصواريخ يلقونها بأيديهم عليها.

بـما في أيدينا

وواجهت أحمد إسماعيل مشكلة السلاح، فلم يهتم لها، وإنما ذهب يستغلُّ السلاح الموجود، أقصى ما يكون

الاستغلال، ووطَّن نفوس مقاتليه على الاعتماد على هذا السلاح المتوفر، من دون أن يبنوا خُططهم على أسلحة تم التعاقد عليها ولم تَرِدْ بعد، وهكذا استطاع المشير أن يُفلت بالجيش من أن يكون تحت رحمة الاتحاد السوفييتي.

وبدأ أحمد إسماعيل يطلب ويُشرف على إجراء الدراسات العلمية المتصلة بالحرب، ودرست قواتنا المسلحة المدَّ والجزْر، وطُول الليل والنهار، وكل عوامل الطبيعة التي لها دخل مباشر أو غير مباشر في عملية العبور والحرب، حتى انتهت إلى تحديد أنسب الأوقات.

٨٠٪ من الاحتياط

ووجّه أحمد إسماعيل اهتمامًا خاصًّا إلى دراسة نفسية المقاتل الإسرائيلي، واستعان على ذلك بجهود المخابرات العامة وأجهزتها، فتوصل إلى مدى الظلم الذي يُحِسُّه اليهود الشرقيون حين يجدون أن ٨٥٪ منهم يشغلون الرتب الصغيرة في جيش العدو الإسرائيلي، ولعل من أهم المعلومات التي توصلت إليها قواتنا المسلحة

وأفادتها خير إفادة في تحقيق نصر أكتوبر، أن ٨٠٪ من الجيش الإسرائيلي قادة وجنودًا من الاحتياط، وهنا تظهر خطورة عنصر المفاجأة الذي استخدمته قواتنا أروع ما يكون الاستخدام.

والخلاصة أن هذه الدراسات وضعت إسرائيل أمام قواتنا المسلحة في حجمها الحقيقي، ومشكلاتها الداخلية، وطوائفها المتناقضة، وأحزابها المتناحرة، واقتصادها المتضخم، وعندئذٍ عرف جيشنا إلى أيِّ مَدًى ينتشر الضعف والانحلال في هذه الدولة وجيشها الذي لا يُقْهَر.

وعلى الجانب الآخر، كان أحمد إسماعيل يُؤكِّد لقواتنا المسلحة أنَّ أهم أسباب هزائمنا أمام العدو، هي الخيانة والتآمر، والدليل على ذلك أننا كنا ننتصر على إسرائيل دائما في المعارك الالتحامية التي خُضناها معها في جميع الحروب.

مرض الخنـادق

كان إيمان أحمد إسماعيل بضرورة الحرب لا يحدُّه حَدٌّ، وكان إذا لفت نظر جنوده إلى الوضع الدفاعي الذي اتخذه جيشُنا، عَبَّر عن ثقته في أننا لن نخرج من هذه الحالة إلا بجهد القوات المسلحة، وكان الرجل دائم التعبير عن أمله في القضاء على ما أسماه «مرض الخنادق»، يقصد بقاء قواتنا المسلحة في وضع الاستعداد للدفاع، والهرب إلى الخنادق للاحتماء بها من وابل قنابل العدو.

الـزمـن

ولكن أحمد إسماعيل لم يقيد نفسه بمفهوم من مفاهيم الحرب التقليدية، ولا بالآمال الطموحة في الحرب الشاملة التي تُبيد وترمي في البحر، ولا بالحرب القاضية التي لن تترك رجلاً في إسرائيل على قيد الحياة، إنما كان يضع في ذهنه واعتباره عاملاً أخطر من هذه العوامل هو عامل «الزمن»، وكان الرجل يُصدر- في تقديره لعامل الزمن-

عن مشاركة الرئيس أنور السادات في فهم عميق لكل أبعاد المعركة والموقف مع إسرائيل، وأمام العالم.

وكان الرجلان- في تقديرهما لعامل الزمن- ينظران بثاقب نظريهما إلى الحالة المتجمِّدة التي وصل إليها الموقفُ العربي، وهي الحالة التي سُمِّيت باللاحرب واللاسلم، ولم تكن خطورة هذه الحالة تكمن في عملية الاستنْزاف المستمرة الناشئة عنها، ولا في حالة القلق المترتبة عليها فحسب، وإنما كان الأمر الأهم والأخطر في هذه المشكلة، هو احتمال استمرار هذه الحالة على ما هي عليه، وعندئذ تتجمد القضية العربية، ويضيع الحق العربي تبعًا للأمر الواقع، ويأخذ الاحتلال الإسرائيلي شكلا طبيعيا بالتقادم.

اللـه أكـبر

كان لا بدَّ إذن من كسر حالة الجمود هذه، ولم يكن هذا ليتأتى من دون حرب، ولم يكن هناك خلافٌ على

هذه الفكرة، ولكن الخلاف كان حول إمكانية قيامنا بهذه الحرب، هل نستطيعها أم لا؟ وكان الرئيس السادات مؤمنًا كل الإيمان بأننا نستطيعها، ونستطيع الإعداد لها.

وكان أحمد إسماعيل- كما يقول الأستاذ مصطفى أمين- هو ذلك الرجل الذي رأى النور مع أنور السادات في أحلك ساعات الظلام، الرجل الذي آمن بنظرية أنور السادات العجيبة بأن شجاعة الجندي المصري ممكن أن تعوِّض مصر عمَّا ينقصها من الأسلحة، وأنَّ كل أسلحة الدنيا لا تنصر الأرواح الضائعة، فكان نداء «الله أكبر» سلاحًا له قوة الدبابات والطائرات والصواريخ.

سلامة قوّاته

كان أحمد إسماعيل مؤمنًا بضرورة قيام حرب يقاتل فيها الجندي المصري قتالاً حقيقيا ضدَّ العدو ليستردَّ كرامته، وليرفع الشعبُ المصري رأسه عاليًا، بيد أن هذا لم

يدفع الرجل إلى المخاطرة في أية لحظة من لحظات الإعداد أو الحرب، فقد كان حريصًا كل الحرص على سلامة قواته، وقد عبر عن ذلك بقوله: «كنتُ أعرف جيدًا معنى أن تفقد مصرُ جيشها، إن مصر لا تحتمل نكسة ثانية مثل نكسة يونيو سنة ١٩٦٧، وإذا فقدت مصرُ جيشها فعليها الاستسلام لفترة طويلة»، وهو قولٌ يستحق عليه صاحبُه من ثواب الله جل عُلاه، أضعاف ما يسعنا من تقدير وثناء.

وقد ظل هذا الإيمان يلازم أحمد إسماعيل، حتى بعد خروجه من المعركة، أو قُلْ إنه كان يعبر عن سعادته بما استطاع تحقيقه في هذا الصدد، فكان يقول: «إننا حققنا انتصارًا مضاعفًا، لأنني تمكنت من الخروج بقواتي بعد التدخل الأمريكي السافر في المعركة، وكانت هذه القوات قادرةً على الحرب واستمرار القتال، وثابتة في مواقعها في شرق القناة».

بل لقد كاد حرص أحمد إسماعيل على سلامة قواته يتحوّل عند بعض النقاد إلى مثار انتقاد، ولم يكن الرجل يقلل من قيمة رأي هؤلاء، ولكنه كان مصممًا باستمرار على المحافظة على سلامة قواته، لأنه يعرف ضخامة الجهد الذي أعطته مصر لإعادة بناء الجيش، وهكذا استطاع المشير أن يوفق بين ما بُذِلَ من جهد لا يمكن أن يتكرَّر بذلُه بسهولة، وبين تحقيق الهدف من العمليات، وفي هذه الموازنة التي استطاعها أحمد إسماعيل سرٌّ من أسرار عظمته، وسرٌّ من أسرار ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

اختيار القادة

وفيما قبل الحرب، حرص أحمد إسماعيل على تعيين القادة والرؤساء من الضباط الممتازين علمًا وخُلقًا، الذين تمرَّسُوا في القيادات والوظائف حتى وصلوا إلى مراكزهم عن طريق العمل الجاد والخبرة المكتسبة.

ولم يكْتَفِ الرجلُ - في اختياره لقوّاده - بذلك فحسب، وإنما حرص على توفير روح الفريق في القيادة المصرية وعملها كطاقم واحد مترابط يُكمل بعضُه بعضًا من دون حساسية ولا تناحُر بين القوّاد بعضهم وبعض، ووفق الله الرجل لما أراد، فكان هذا الترابط الكامل بين القيادات المشتركة دُعامة أساسية في نجاح خطط العمليات وكفاءة تنفيذها بدقة في توقيتاتها المحددة.

الجولات العربية

وقام المشير ببعض جولات عربية، استطاع أن يُنسِّق من خلالها الجهود العسكرية العربية، وأن يُنمِّي التضامن السياسي، وأن يزرع الثقة في نفوس القادة العرب وقادة الجيوش في جيش مصر وفي معركة مصر، وكانوا جميعًا شبه حيارى بين ما يؤكده أحمد إسماعيل، الذي كان ينال منذ اللحظات الأولى ثقتهم لما لمسوه منه من تأكيده بقرب المعركة، وبين المعلومات الأجنبية التي تُجْمِعُ على خلاف

توجيه إستراتيجي من رئيس الجمهورية
والقائد الأعلى للقوات المسلحة

إلى : الفريق أول أحمد إسماعيل علي

وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة

١- بناء على التوجيه السياسي العسكري الصادر لكم مني في أول أكتوبر ١٩٧٣ وبناء على الظروف المحيطة بالموقف السياسي والإستراتيجي :

قررت تكليف القوات المسلحة تنفيذ المهام الإستراتيجية الآتية :

أ- إزالة الجمود العسكري الحالي بكسر وقف إطلاق النار اعتبارا من يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣

ب- تكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة في الأفراد والأسلحة والمعدات

جـ- العمل على تحرير الأرض المحتلة على مراحل متتالية حسب نمو وتطور إمكانيات وقدرات القوات المسلحة

٢- تنفذ هذه المهام بواسطة القوات المسلحة المصرية منفردة أو بالتعاون مع القوات المسلحة السورية

رئيس الجمهورية

٩ رمضان ١٣٩٣ هـ
٥ أكتوبر ١٩٧٣ م

أمر القتال فى حرب أكتوبر

ما يقول، ولكنهم اكتشفوا أخيرًا كيف كان الرجل وجيشه المصري على أعلى درجات الصدق والبذل والعطاء. ولعلّ من أبرز زيارات أحمد إسماعيل العربية زيارته للسعودية التي صحبه فيها المغفور له الملك فيصل إلى الكعبة، في سكون الليل.

وكان المشير أحمد إسماعيل في مباحثاته يُصِرُّ على أن تحدِّد كل حكومة من الحكومات العربية ما تستطيع تقديمه إلى المعركة على وَجْهٍ دقيق، ولم يفقد إيمانه برسالته ولا ثقته بنفسه كقائد، يومًا من الأيام، وكان يُعلن بإصرار أنه حتى لو بقيت مصر وحدها فلا بد أن تخوض المعركة وأن تحقق النصر.

من أجل المعركة

وقد توالت على أحمد إسماعيل- بعد تعيينه وزيرًا للحربية في مصر- الصلاحيات والمناصب العربية، ومكنته

هذه المناصب من التخطيط للمعركة على المستوى القومي، ففي الحادي والعشرين من يناير سنة ١٩٧٣ اختير قائدًا عامًّا للقوات المسلحة لدولة اتحاد الجمهوريات العربية، والتي كانت تضم مصر وسوريا وليبيا، وبعدها بأسبوع واحد في الثامن والعشرين من يناير أسندت إلى الرجل وظيفة القائد العام للجبهات الثلاث (الشرقية والشمالية والجنوبية)، بقرار من مجلس الدفاع العربي بالجامعة العربية، ولم تكن هذه المناصب قبل ذلك شاغرة تنتظر من يشغلها، ولكن الحق أن الاستعداد المصري النشط للمعركة المصيرية هو الذي خلق هذه المناصب جميعًا.

وقد أعلن الرئيس السادات في الثامن والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٧٢ عن تشكيل اللجنة العليا للإعداد للمعركة برئاسته، وكان أحمد إسماعيل عضوًا في هذه اللجنة، وتوالت بعد ذلك اجتماعاتُ مجلس الأمن القومي، واجتماعات أخرى على مستوًى عالٍ كان الرئيس يرتب فيها جميعًا للنواحي المختلفة المتعلقة بالمعركة.

العَرَق يوفر الدم

أمَّا في الجيش، فقد كان أحمد إسماعيل من أكثر المؤمنين بأن العرق يوفر الدَّم، ولهذا كان ميَّالاً باستمرار إلى التدريب، مهتمًّا- إلى أقصى مدًى- بالتربية الميدانية للأفراد وبلياقتهم للقتال، وكان حَفِيًّا بإجراء المناورات العسكرية من آن لآخر، وتجهيز مسرح العمليات والتدريب عليه، وتجربة كل خُطة قبل تنفيذها مهما كلَّفت من وقت وجهد ونقد.

أثمن سلاح

وكان- رحمه الله- يحرص على أن يشارك جُنودَه في حياتهم العسكرية، وكان كثيرًا ما يزور معسكراتهم ومناطق تجمعهم، حتى في المواقع الأمامية والخنادق والملاجئ تحت الأرض، وكان يُصرُّ على أن يشارك الجنودَ طعامهم الذي يأكلونه في الميدان دون تمييز، وكان يُبدِي اهتمامًا كبيرًا بملابس الجنود ومهمَّاتهم، ويتأكد من وُصولها لهم في الأوقات المحددة، ويوصي بزيادتها وتطويرها عند

الحاجة، وكثيرًا ما كانت الشئون الإدارية تستأثر بفترات طويلة من وقته، ولكنه كان مهتمًّا بها مقدِّرًا أهميتها ومُثنيًا دائمًا على جهود رجالها، أما المرضى والمصابون فكانوا يحظون بزيارته وعنايته وتوصياته واهتمامه بعلاجهم في الخارج متى اقتضى الأمرُ ذلك، ولم يكن ذلك كله إلا تطبيقا منه للمبدأ الذي آمن به من أن الجندي المقاتل هو أثمن سلاح في المعركة.

برج العرب

وطوال الفترة التي سبقت المعركة في سنة ١٩٧٣ كان أحمد إسماعيل يختفي من مصر ليظهر في سوريا، ويختفي من سوريا ليظهر في موسكو، وهكذا دواليك، وحضر أحمد إسماعيل مع السادات والرئيس حافظ الأسد اجتماعهما التاريخي في برج العرب في إبريل سنة ١٩٧٣، ورَأَسَ اجتماع المجلس الأعلى للقوات المسلحة السورية والمصرية الذي عُقِدَ سِرًّا في أغسطس سنة ١٩٧٣،

وفي الأيام الأخيرة التي سبقت الحرب كان أحمد إسماعيل يُكثر من زيارة المواقع المتقدمة، وكان حريصًا على أن يطمئنَّ بنفسه على الابتكارات التي توصَّل إليها جنودُه، وعلى استحكامات الأمن، فكان لا يفتأ يُبادِلُ بين سؤالين: أرُوني ماذا ابتكرتم؟ وهل أحسَّ العدوُّ بنية الهجوم؟

وفي نهاية الاجتماع التاريخيِّ الذي عقده المجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية، قبيل الحرب بأسبوع، عبّر الرئيس السادات عن مسئوليته التامة عن قرار الحرب، وكأنما أراد أن يبث الثقة والاطمئنان في نفوس قُوَّاده إلى أبعد حَدّ، ولكن أحمد إسماعيل قال للرئيس: إننا نشترك معك يا سيادة الرئيس في المسئولية، فجميعُنا مسئولون عن بلدنا مثلكم.

أهمية المفاجأة

ولعل أبرز ما حرص عليه أحمد إسماعيل ومعاونوه، هو التمويه والخداع، ولعل حرصه الشديد على هذين الخلقين

يرجع إلى إيمانه العميق بأهمية تملك عنصر المفاجأة، ولقد استقرأت المعاهد العسكرية عمليات الخداع والتمويه التي استخدمها الجيشُ المصري، فوصلت إلى أكثر من خمسين عملية، من ذلك أن مسرح العمليات نفسه تم تجهيزه تحت ستار تحسين الدفاعات الموجودة، بينما كان يجهز من الداخل لعملية الهجوم الحقيقية، وأعلن المشير أنه سيسافر إلى رومانيا يوم الثامن من أكتوبر، وهو يعلم أنه لن يسافر ذلك اليوم، وظلت قواتنا المسلحة تتدرَّب وفي اعتقادها أنها ستهجم بالليل أو في آخر ضوء للنهار، أو بعد آخر ضوء، حتى توهَّم الجميع أننا سنهجم ليلاً، ثم هجمنا حين يكون النهار أوضح ما يكون، وكان أحمد إسماعيل من مؤيدي فكرة بناء الأهرام والمصاطب العالية على الضفة الغربية للقناة حتى تكون ساترًا يحيط تحركاتنا بسياج من السرية.

وفي محيط العائلة كان المشير مدعوًّا على إفطار رمضاني، يوم الثالث من أكتوبر في منْزل أخيه اللواء

محمود أنيس، وكانت ابنة أخيه تعتزم السفر إلى زوجها، وهو من الدبلوماسيين المصريين في الهند، يوم السادس من أكتوبر فلم يُبْدِ أحمد إسماعيل انطباعًا ما، لكنه لم يستطع أن يُظهر نفسه في موقف المتكتم لأمر ما، حتى لا يُثير أيَّ استفسار، فقال المشير لابنة أخيه: وهل سيحضر زوجُك لاصطحابك؟ فقالت: لا بالطبع، فقال لها في تدليل الأب: إذن لا تسافري.

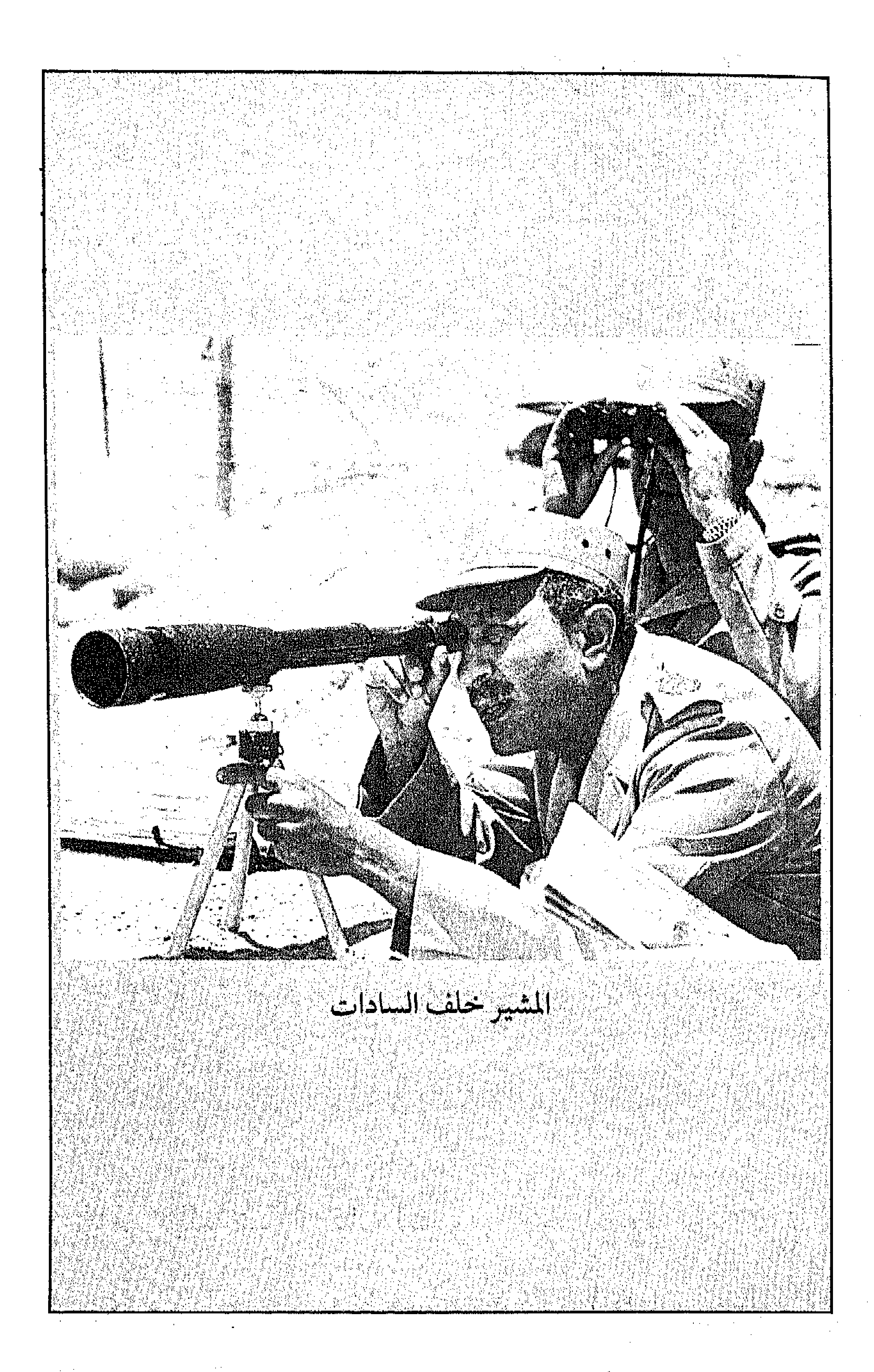
وكان الرئيس السادات قد نبه إلى أنه عندما تأتي ساعة الصفر فلا بُدَّ من المحافظة التامة على الطائرات المدنية الموجودة في المطار، فلمَّا بدأ ترحيلُ العائلات الروسية قبيل الحرب مباشرة، استنتج وزيرُ الطيران المدني أن شيئًا قريبًا سيحدث، فأَمَرَ من تلقاء نفسه بإيقاف جميع الرحلات، وأذيع هذا النبأ في جميع مطارات العالم، وعلم أحمد إسماعيل- وهو القائد اليقظ- بقرار وزير الطيران، فبادر إلى الاتصال به، وطلب منه إعلان عودة الطيران إلى

حالته الطبيعية، والإعلان بأنَّ هناك أعطالاً فنية أدَّت إلى هذا التوقف، واستمَرَّ مَنْ حولنا في حالة التخدير، إلى أن أفاقوا منها ضُحى السادس من أكتوبر.

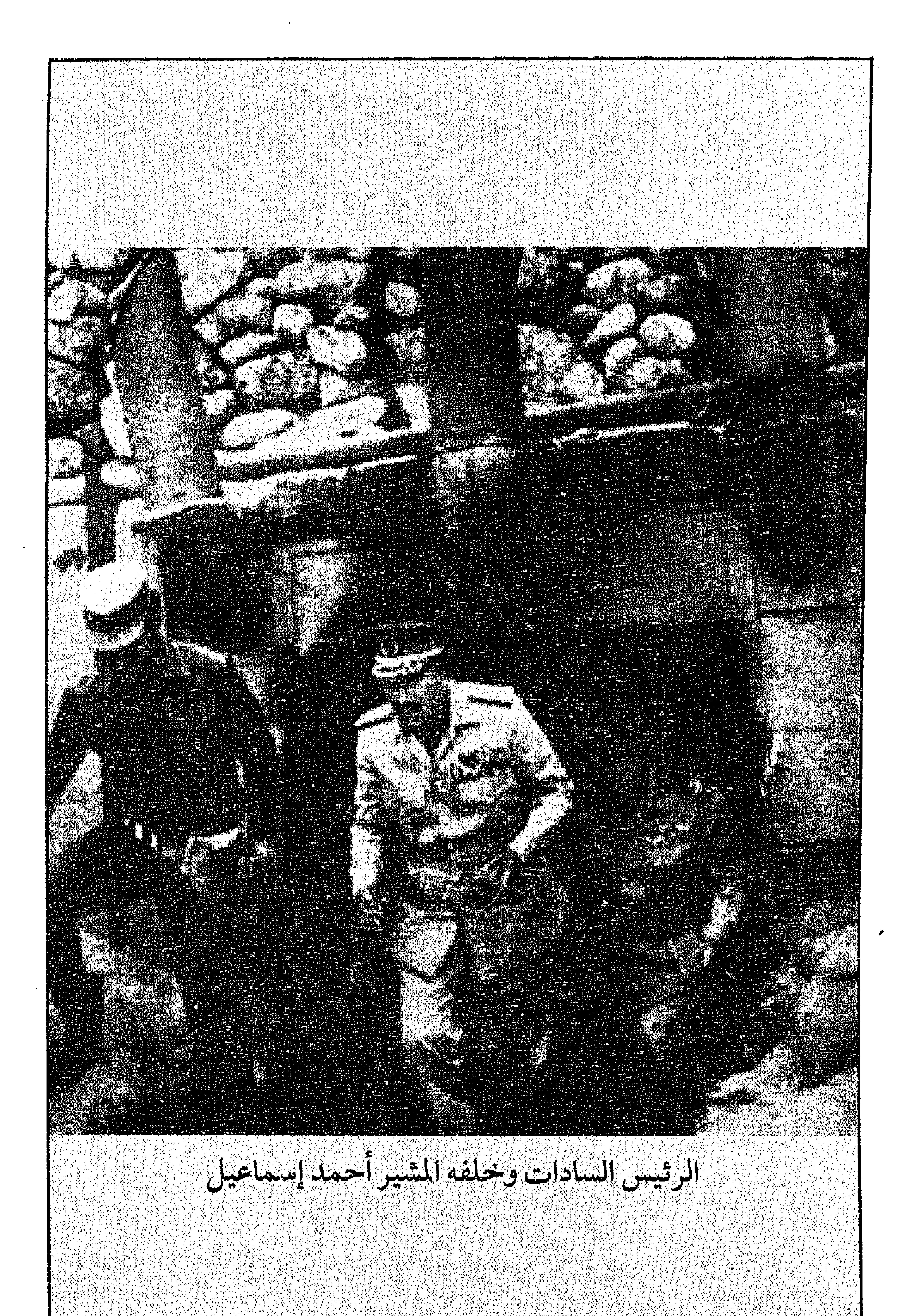
يحيط التمويه بسياج من التمويه

ومع كل ذلك كان أحمد إسماعيل حريصًا على أن يحيط التمويه بسياج من التمويه، فلم يتمادَ في خطط الخداع إلى الحد الذي يظهر فيه تكلف الخداع، ومن ذلك أن أحد كبار مساعديه أشار عليه بأن يتناول غداء يوم الجمعة الخامس من أكتوبر سنة ١٩٧٣، في نادي الجزيرة، زيادة في الإيهام، ولكن أحمد إسماعيل لم يُوَافق، لأنه لم يكن من عادته الذهاب إلى نادي الجزيرة للغَدَاء ولا لغير الغداء، فإذا ذهب من باب التضليل فقد يلفت هذا الأنظار إلى الحقيقة نفسها.

ولعَلَّ أبلغ عبارة تقال لتصوير جوّ التمويه والخداع ما يُروى من أنه عندما صدرت الأوامرُ للطيارين بالإقلاع



المشير خلف السادات



الرئيس السادات وخلفه المشير أحمد إسماعيل

ساعة الحرب، سألوا: هل لنضرب فعلاً؟ أم إنها مناورة تدريبية جديدة؟

صلَّى الفجر

فلما بزغ فجرُ السادس من أكتوبر، قام أحمد إسماعيل من نومه، فصلَّى الفجر، ثم صلَّى ركعتين أخريين لله، ثم ذهب إلى مكتبه في وزارة الحربية كعادته، فصرّف الأمور الروتينية اليومية، وكأنما كان هذا اليوم كغيره من الأيام، وفي الحادية عشرة توجَّه مع اللواء حسن الجريدلي، سكرتير عام الوزارة، إلى مقر القيادة العامة للقوات المسلحة، فاتصل بقادة الفرق والجيوش والأسلحة جميعًا، واطمأنَّ من كل واحد منهم على أحوال قواته ومهمَّاته وأسلحته.

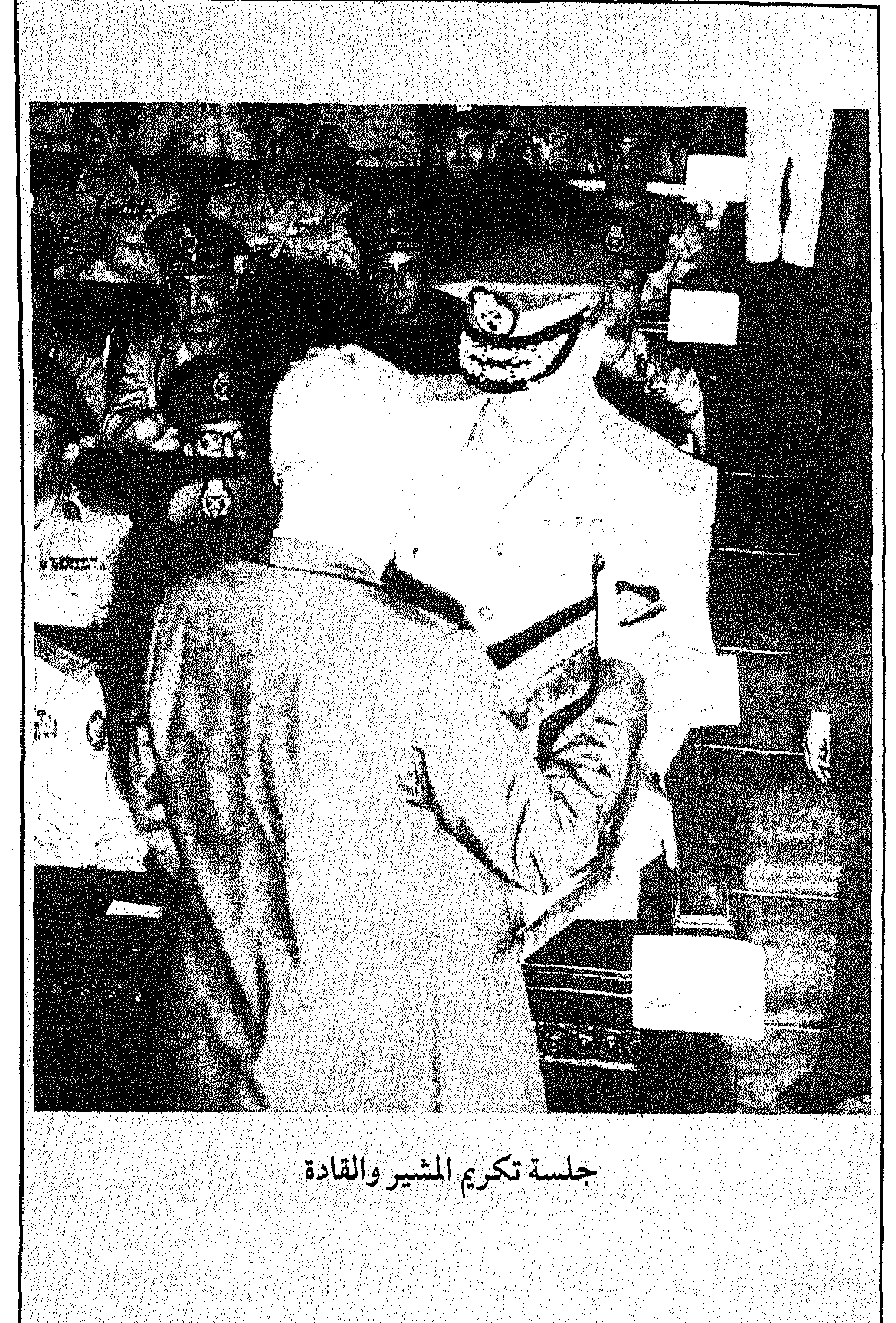
وفي الواحدة والرُّبع بعد الظهر، دخل الرئيس السادات القائد الأعلى للقوات المسلحة يصحبه قائدُها العام أحمد إسماعيل، إلى غرفة قيادة العمليات، وبقي أحمد إسماعيل

في غرفة العمليات حتى السادس عشر من أكتوبر، حين خرج ليستقل مع الرئيس السادات السيارة المكشوفة التي أقلتهما إلى مجلس الشعب، حيث ألقى الرئيس خطابه التاريخي.

وفيما بين هذين اليومين أذهل الرجل معاونيه بصبره الذي لا ينفد، وابتسامته التي لم تغب عن وجهه، حتى في أحلك اللحظات، واكتشف القُوَّادُ الذين عملوا مع أحمد إسماعيل في هذه الحرب سِرَّ عظمة القائد الذي كان يرى دائمًا الفرق بين المغامرة والحرب.

جلسة التكريم

هذا، وقد عقد مجلسُ الشعب المصري جلسة في التاسع عشر من فبراير سنة ١٩٧٤، لتكريم قادة القوات المسلحة، وحضرها الرئيس السادات، وأعلن فيها منح رتبة المشير للقائد البطل أحمد إسماعيل علي، اعتبارًا من السادس



جلسة تكريم المشير والقادة

من أكتوبر سنة ١٩٧٣، نال هذه الرتبة عن استحقاق وبعد أن تدرَّج في الرتب المختلفة تدرجًا طبيعيا، ولم يكن المشير كل ذلك فحسب، لكنه كان أول قائد عربي كبير- في العصر الحديث- عَبَرَ الفانية إلى الباقية وهو مُنتصر. وفي الرابع والعشرين من إبريل سنة ١٩٧٤ اختير المشير أحمد إسماعيل نائبًا لرئيس الوزراء في الوزارة التي شكلها الرئيس السادات برئاسته.

مرض المشير

وفي أوائل صيف سنة ١٩٧٤، سافر المشير أحمد إسماعيل للعلاج في لندن بناء على نصيحة الأطباء المصريين، وقرَّر الأطباء الإنجليز أن يُجْرُوا له جراحة في الرئة لإصابته بسرطان فيها، لكنهم أخفوا عنه الحقيقة، وقالوا إنها عملية تيبس في الرئة ويستحسن أن يحضر إجراءها زوجته أو ابنه، وسافرت زوجته وابنه الأكبر، وتمت العملية بنجاح، وعاد أحمد إسماعيل في الرابع والعشرين من أغسطس

سنة ١٩٧٤، فقبّل جميع القادة الذين كانوا في استقباله في المطار، ثم عاوَدَ نشاطه، وباشَرَ مهامَّ منصبه بكل جدٍّ وإخلاص، وكان يعمل أضعاف ساعات عمله قبل السفر، وكان يُداوم على المرور على القوات في مواقعها، وعلى حضور المناورات والبيانات العملية، أتاه المرض مرة ثانية في نوفمبر سنة ١٩٧٤، واشتد عليه المرض هذه المرة، فقاوم الألم في صبر وشجاعة، ولكن الأطباء نصحوه بالذهاب مرة ثانية إلى لندن، وسافر الرجل في الثالث والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٧٤.

ويشاء القدَرُ أن يُصاب بالتهاب رئوي عند وصوله إلى لندن، ثم يكون من مضاعفات هذا الالتهاب جلطة في الرئة، بالإضافة إلى ما كان في الرئة من ذي قبل، وأخذ المرض يشتدُّ على البطل يومًا بعد يوم، وكان الرئيس يتابع حالة المشير الصحية في اهتمام وقلق بالغين، فلما كان يوم الثلاثاء أول أيام عيد الأضحى المبارك، أوفد الرئيس

السادات الدكتور أشرف مروان والسيد فوزي عبد الحافظ إلى لندن، ومعهما طائرة خاصة، ليكونا في صُحبة المشير وتحت تصرفه، استعدادًا لأيٍّ طارئ قد يتطلبه العلاج، وعرض الرئيس الأمريكي فورد أن يُرسل أكبر أطبائه إلى لندن للإشراف على علاج المشير، حتى إذا تقرَّر سفر هذا الإخصائي من واشنطن إلى لندن في صباح اليوم التالي، كان مَلَكُ الموت قد سبقه فصعد بروح أحمد إسماعيل إلى السماء، فجر ثاني أيام عيد الأضحي المبارك الأربعاء الحادي عشر من ذي الحجة سنة ١٤١٣هـ، الموافق الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ١٩٧٤.

في يوم العيد

وجاءت الطائرة في ثالث أيام عيد الأضحى، بجثمان البطل القائد الذي رزق الله مصر على يديه بأعز أعياد نصرها، فلما كان يوم الجمعة رابع أيام العيد خرجت جنازة الراحل العظيم من مسجد عمر مكرم، بعدما أمَّ الشيخ

عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر المصلين، وبينما كانت جماهير القاهرة تشيع الراحل إلى مثواه الأخير كان المسلمون في البقاع الأخرى يؤدُّون صلاة الغائب على رُوح الرجل العظيم.

بيان الرئيس السادات

وأصدر الرئيسُ السادات بيانًا نعَى فيه المشير، قال فيه: «ينعى رئيس الجمهورية والقائدُ الأعلى للقوات المسلحة، إلى الشعب المصري والأمة العربية، ابنًا من أبنائها، سيظل اسْمُه مقترنًا في التاريخ بالأمجاد العسكرية المصرية وبطولات العبور العظيم إلى النصر، المشير أحمد إسماعيل علي، نائب رئيس الوزراء ووزير الحربية، مضت نفسُه الطاهرة إلى ربها راضية مرضية، بعد ملحمة من الألم والشجاعة، طواها على الناس جميعًا وهو يبذل آخر شعاع من نفسه، في تدعيم وتطوير القوات المسلحة لتظل الدرع الحامية لكل حقوق ومنجزات شعبنا العظيم. مضى

إلى ربه، الرجلُ الذي أشرف معي ومع الإخوة السوريين، على إعـداد وتدريب جيوش النصر، وأسهم بقدرته العسكرية الفذة في تحويل الهزيمة إلى نصر، وفي تحطيم خط بارليف وأسطورة جيش إسرائيل الذي لا يُهْزَم».

لقد كانت القوة الحقيقية لأحمد إسماعيل علي، في أنه بعد إيمانه بالله آمَنَ بالجندي المصري وبشجاعته وبطولته واستعداده للتضحية، كما كان- رحمه الله- يرى أن إيمان الجندي بالله هو نصف المعركة، وإن إيمان الجندي بالوطن هو نصفها الآخر.

لقد كان أحمد إسماعيل في أيام الهزيمة قائد خط الدفاع الأخير، وكان في أيام النصر قائد خط الهجوم الأول، وسيبقى في وجدان الأمة كلها وفي تاريخها رمزًا شامخا للعسكرية المصرية والشجاعة المصرية.

شخصية أحمد إسماعيل

كان أحمد إسماعيل في حياته جنديا، ولم تكن الجندية عنده إلا بذل الجهد في تحقيق النصر، ولم يخطر بباله قط أن الجندية مغنم أو انتهاز فرصة لتحقيق مجد شخصي، وكان طوال حياته إنسانا بسيطا يميل إلى البعد عن المظاهر، والترفع عن الصغائر، والإصرار على الهدف، والتفاني في العمل، والشجاعة في الحق، كان عزوفا عن الوساطة، شغوفا بنصرة الحق، راعيا لجنوده، يحرص على راحتهم ويعمل على تأمين مستقبلهم ورعاية أسرهم. وكان رحمه الله شديد الاعتزاز بنفسه، وهو مع ذلك جم التوضع سريع الألفة مع الناس. وكان ميّالا للضبط والربط، متمسكا بالتقاليد العسكرية والقيم الدينية، محبا للصراحة والنظام، دقيقا في كل تصرفاته. ولم يكن ميالا للشهرة، ولم يحاول أن يسعى إليها في أي من الأوقات، وكان دائما

يفضل العمل الصامت دون إعلان، ولم يكن من عادته أن يتحدث عن سلبيات من سبقوه، لكنه كان يقدم البديل بعمل ما يجب أن يكون، فإذا سئل قال: إنه ليس من حقه الحديث فيما لا يخصه من أمور.

وكانت له من رجولته قوة شخصية، ودماثة خلق، وصراحة في الحق، وسعة في الأفق.

لا يخرج عن التقاليد العسكرية

كانت العدالة تجري في دم أحمد إسماعيل، كان حريصا علي تطبيقها تطبيقا مطلقا لا تأخذه في ذلك لومة لائم، ولا عتاب صديق ولا شعور عائلي، ولا عاطفة قرابة، ولا مصلحة خاصة، وكان المشير لا يخرج عن التقاليد والإجراءات العسكرية فيما يتعلق بنفسه وهو وزير، فلما مرضت زوجته وقرر الأطباء سفرها للعلاج بالخارج أرسلها إلي القومسيون الطبي حتي يتقرر ذلك رسميا، وفعل ذلك مع أخيه اللواء محمود أنيس، بل إنه تقدم بنفسه في مرضه

الأخير إلي وزارة الصحة، فلما تقرر سفره إلي الخارج رفض أن يتقاضي بدل سفر أو بدل علاج.

ولم يكن- رحمه الله- يعلم أن هذا هو مرضه الأخير، ولم يعتمد أحمد إسماعيل في حياته على الوساطة ولا المحسوبية، وكان حريصا ألا يكون هو معتمدا عليه في هاتين الناحيتين، وقد ربى أولاده جميعًا على مواجهة أمورهم بأنفسهم، فهداهم الله إلى هذا الحق المتين، فأصر ابنه الأكبر الأستاذ محمد أن يترك العمل في جهاز المخابرات حين أتى والده ليجلس على قمته.

وكان في قيادته حريصًا على أن يزرع في نفوس مرءوسيه جميعا احترام مبدأ تسلسل القيادة، ولم يكن يقبل أن تعرض عليه موضوعات عن غير الطريق القانوني، وهكذا أعطى الرجل لمرءوسيه ومعاونيه الإحساس بالبيئة العسكرية، فنال كل ذي حق حقه.

إنــكار الذّات

وكان أحمد إسماعيل مثالاً في التواضع وإنكار الذات، فلم يكن يفخر بما يحق له أن يفخر به، ولا يتحدث عمّا أدّاه، فلما سُئل عن شعوره بعد حرب أكتوبر، قال إنه شعور الجندي الذي أدّى واجبه..

وعقّب بقوله: إنه كان مجرد أب لواضعي الخطط، يستشيرونه عند اللزوم، ولما انعقد مجلس الوزراء المصري ليستمع من أحمد إسماعيل إلى تفاصيل المعركة، أظهر الرجل كل أدوار القوّاد الصغار والكبار، وتجاهل في عرضها الدور الذي أداه، تحدث عن الجندي المصري الشجاع المؤمن الجسور، ولم يتحدث بكلمة واحدة عن القائد العام، وقد فعل نفس الشيء في ندوة نقابة الصحفيين حول متغيرات أكتوبر، فكان يقول وهو يقدم معاونيه من قيادات الأسلحة التي أنجزت المعركة: «لسنا وحدنا الذين حققنا النصر، إنها معركة أسلحة مشتركة». وعندما ذهب

المشير يفتتح معرض الغنائم الذي أقيم بعد حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣، قال: ليس من حقي أن أفتتح هذا المعرض، إنه من حق هذا الجندي الذي صاد أكبر عدد من دبابات العدوّ، وأفسح المشير المجال للجندي عبد العاطي، ناوله المقص، فقص شريط الافتتاح، وفيما قبل حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ لم يكن أحمد إسماعيل يُوافق على الإدلاء بأحاديث تليفزيونية أو صحفية، وكان يستنكر على الذين يطلبون منه مثل ذلك الطلب قائلاً: «أتحدث عن ماذا؟».

ومن أبلغ ما قيل في وصف تواضُعه قول الأستاذ محمد زكي عبد القادر: وما عرفت رجلا رفعه تواضعُه إلى أعلى الدرجات، ورفعه صمته فجعله حديث العاملين مثله، عسكريا من رأسه إلى قدمه، يدرك أن الكلام ليس صنعته ولكن العمل والجهد، ويؤمن أن الصمت نصف الطريق إلى النصر، ولم أعرف رجلا مثله خرج من الظِّلال

إلى الضوء الباهر في لمحة، جَزاءً وفاقًا للعمل الصامت والصمت العامل. وكان أحمد إسماعيل- رحمه الله- نموذجًا للالتزام طيلة حياته العسكرية، والذين عاشروه في مراحل مختلفة في هذه الحياة لا يستطيعون أن يقدروا أن التزامه في مرحلة منها كان يفوق التزامه في مرحل أخرى، وإنما كان التزام الرجل من نوع فريد، زادت مسئولياته أو قلَّت، وحَانَ وقتُ الجدِّ والملاحظة أو لم يحن، ولكن من أمثلة ذلك ما روته زوجته، أنه ذهب إليها يوما فقال: «إني مضطر للسفر في مهمة رسمية مع مجموعة من الزملاء، ولكن أرجوك لا تسأليني عن جهة سفري، لأن ذلك سرٌّ لا أستطيع أن أبوح به لأحد، وكل ما أستطيع قوله إنه سيأتيك شخص ليسلمك بعض الخطابات مني ويتسلم الرد منك». وظلت زوجته على هذا الحال أربعة أشهر حتى جاءتها مكالمة منه من موسكو، ساعتها فقط عرفت أن زوجها كان قد سافر من يومها للاتحاد السوفييتي.

ابتسامة عريضة

كان أحمد إسماعيل يتمتع بقدرة هائلة على الصبر وتحمُّل المفاجآت، وكان يملك ابتسامة عريضة تُضيِّع على أمهر المتقربين فرصة التقاط أي تعبير ينم عن حالته النفسية، لكن جسم الرجل دفع ثمنا لهذه القدرات، من قدرته على تحمل أمراض القلب والرئة والسرطان، وكنت تراه قبل وفاته وهو في السابعة والخمسين من عمره فتحسبه تعدَّى هذا العُمر بكثير.

يعرف كثيرًا عن جنوده

وكان أحمد إسماعيل على دراية تامة بجنوده ومواقعه، وقد ذكر الصحفي الإنجليزي «لويس هال» في مقال من مقالاته المتعددة التي كتبها للصحف الإنجليزية عقب حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣، أنه رافق المشير أحمد إسماعيل وهو يزور حُصون خطوط بارليف، فوجده يعرف كثيرا عن جنوده بالاسم، ويسألهم عن زوجاتهم وأبنائهم، ويقدِّمهم

لمرافقيه من المراسلين على أنهم الأبطال الحقيقيون في المعركة. أما أهل سيناء فقد قدموا علم سيناء لأحمد إسماعيل، تقديرًا منهم لمعرفته التامة بأرضهم شبرًا شبرًا، ثم أذن الله أن يكون أحمد إسماعيل، على رأس الجيش الذي رفع علم مصر على أرض سيناء.

مؤهلات القيادة

ولو كان للقيادة أن تختار الرجل الذي يتولاها لاختارت أحمد إسماعيل، قد تجمَّعت في هذا الرجل كل مؤهلات القيادة الحقة من خبرة وعلم وشخصية، وقد تحدثنا في الفقرات السابقة عن أبرز الصفات التي كوَّنت شخصية الرجل العسكرية، وأما الخبرة فقد اكتسبها الرجل من تدرجه في وظائف القيادة للوحدات والتشكيلات المختلفة منذ تخرجه وعمله في القوات المسلحة كل هاتيك السنين، قد عمل أحمد إسماعيل قائد فصيلة (يوليو سنة ١٩٣٨)، وقائد سرية (نوفمبر سنة ١٩٤٢)، وقائد كتيبة (سبتمبر

سنة ١٩٥٣)، وقائد لواء (إبريل سنة ١٩٥٦)، وقائد فرقة (يوليو سنة ١٩٦٢)، وقائد الجبهة (يوليو سنة ١٩٦٧).

وهكذا كان الرجل - كما يُسمُّونه - رجُل التشكيلات، لأنه كان على دراية تامة بنظم ومشكلات التشكيلات المختلفة، من طول ما تمرَّس بالعمل فيها على اختلاف مستوياتها، أو بعبارة أدق في جميع مستوياتها، وبالإضافة إلى هذا عمل بطلنا العظيم في شعبة العمليات (سبتمبر سنة ١٩٦٠)، ثم تولي رئاسة هيئة العمليات للقوات المسلحة (إبريل سنة ١٩٦٨)، ولم يكن من الصعب عليه أن يتفهم طبيعة العمل في هذه الهيئة، وأسباب القرارات والخطط التي تنتهي إليها، وعلاقتها بهيئات الأركان والأسلحة، ومن ثم كان قادرا علي أن يشيع روح التعاون والتلاؤم بين آراء هيئة العمليات ورئاسة الأركان وقيادة الجيوش.

وعلى صعيد ثالث كان أحمد إسماعيل أركان حرب الكتيبة الثانية مشاة (يوليو سنة ١٩٤٥)، وأركان حرب لواء المشاة (إبريل سنة ١٩٤٩)، وأركان حرب فرقة مشاة (أغسطس سنة ١٩٥٢)، وأركان حرب المنطقة العسكرية (يونيو سنة ١٩٦١)، وأركان حرب القوات البرية (يونيو سنة ١٩٦٤)، وتولى رئاسة أركان حرب القوات المسلحة (مارس سنة ١٩٦٩)، وهكذا سَلَكَ الرجلُ التسلسل الطبيعي في القيادة والأركـان على نحو أراده له الله، وخَصَّهُ به، ويقال إن أحدًا غير أحمد إسماعيل لم يظفر طوال خدمته بهذا التسلسل المنطقي.

وعلى صعيد رابع كان أحمد إسماعيل رئيسًا لهيئة التدريب بالقوات البرية (مايو سنة ١٩٦٥)، ثم أصبح رئيسا لهيئة تدريب القوات المسلحة (يونيو سنة ١٩٦٧)، وهكذا تكوَّنت لأحمد إسماعيل من هذه الخبرات المتتالية في هذه المجالات المتكاملة حنكة عسكرية، جمعت خبرات

القيادة والتشكيلات والأركان والعمليات والتدريب، من حيث سار الرجل في هذه المناصب كما يصعد الرجل السوي السلم الطبيعي فيؤدي به إلى الوصول إلى هدفه من دون إرهاق ولا فشل.

الخلفية العلمية

أما علمُ الرجل فقد نما يومًا بعد يوم، فقد حصل المشير على دورات تدريبية في عامي ١٩٤٥ و١٩٤٨، أحرز فيها تفوقًا ملحوظًا، ولفت الأنظار إلى مهارته وقدرته، ثم تخرج في كلية أركان الحرب، وزاد على ذلك ما حصّله من أكاديمية فرونز للعلوم العسكرية بالاتحاد السوفييتي، ثم توّج ذلك كله بتخرُّجه في أكاديمية ناصر للعلوم العسكرية.

على أن لأحمد إسماعيل مع العلوم العسكرية شوطًا آخر حين اضطلع بتدريس هذه العلوم مرة تلو أخرى، في مدرسة الأسلحة والذخيرة (ديسمبر سنة ١٩٤١)،

وفي مدرسة المشاة (يوليو سنة ١٩٤٧)، وفي الكلية الحربية (مارس سنة ١٩٥٩)، وقد تخرَّج على يد المشير أحمد إسماعيل في هذه المعاهد العسكرية عددٌ كبير من رجال قواتنا المسلحة الذين يذكرونه أستاذًا متمكنا من مادته، قديرًا على تقديمها في أبسط إطار، ولم يكن المشير يتخذ من فترات انتدابه للتدريس فرصة يخلد فيها إلى الراحة كما يفعل البعض، ولكنه كان يذهب فيتعمَّق الموضوعات التي كان عليه أن يدرِّسها لتلاميذه، وكان يجد في هذا الدرس من أجل الدرس متعة أي متعة، وهو في ذلك ليس إلا صورة من صور الفطرة النقية الخالصة التي تسعى إلى العلم ما وسعها السعي.

الصناعات الحربية المتطورة

أما أهم شيء كان المشير يتمناه بعد حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣، فقد كان أمله في أن يرى العرب وقد أصبحت لهم

قاعدة صناعية حربية واسعة تعزِّز أمنهم في عالم تسودُه الوحوش، وقد مات أحمد إسماعيل وهو يودُّ لو رأى طائرة عربية، ودبابة عربية، وسلاحًا عربيا، وقد كرَّر الرجل للصحفيين مرة بعد مرة قوله: إنه كله أمل في أن يقتنع الجميعُ بأهمية سرعة تحقيق هدف إقامة قاعدة الصناعة الحربية العربية إزاء الإيقاع السريع المتطور للعالم.

حياة اجتماعية هانئة

أمَّا حياة الرجل الاجتماعية فقد كانت بلا شك من أهم العوامل التي ساعدته على النجاح في حياته، بما هيأته له من الاستقرار النفسي، والراحة الوجدانية، وقد تزوج- رحمه الله- في أوائل الأربعينات من السيدة سماح علي الشلقاني، وكان والدُها طبيبًا في الزمالك، وقد توفي في صباها، كما توفيت والدة أحمد إسماعيل في صباه، فكان لزوجته بعد زواجهما بمثابة الأب والزوج، وكان له منها الزوجة والأم.

وقد رزقهما الله بابنين وثلاث بنات، هم على التوالي: الأستاذ محمد سفير مصر في سوريا، والسيدة زوجة اللواء المعتز محمود أمين، والسيدة زوجة الدكتور أحمد عبد اللطيف رمضان، والدكتور محمود سيف إسماعيل الأستاذ بمعهد الأورام القومي بجامعة القاهرة، والسيدة زوجة الدكتور حسن القلا.

وكان المشير- عليه رحمة الله- لا يخصُّ بيته إلا بالشطر الأقل من وقته، إذ كان حريصًا على تناول الإفطار بين ضباطه وجنوده، وكان حريصًا أيضا على أن يعود إلى وحدته بعد الغداء مباشرة، وكان كلَّما ترقى في رُتبته زاد من الوقت الذي يمضيه في وحدته، على خلاف زملائه، إلا أنه استطاع-- مع ذلك- أن يسلك الطريق القويم في معاملته لأبنائه عطفًا وحنانًا، وحزمًا وعدلاً، وتربية وتعليمًا، وتوجيهًا وتقويما، فلمّا كانت آخر مرة سافر فيها إلى لندن للعلاج قال لهم وقد اجتمعوا في وداعه: اعذروني إذا لم



المشير أحمد إسماعيل أثناء حرب أكتوبر

أعطكم الوقت الكافي، إنني أشكر أمكم أمامكم لأنها فهمت طبيعة عملي فاهتمت بكم وبتربيتكم أكثر مني، ولقد نجحتْ في ذلك، ثم دمعت عينان لم تدمعا من قبل إلا حين كان يعانق جنوده في أعقاب نصر أكتوبر العظيم.

الشيء المحزن

ولم يكن شيءٌ يُحْزِنُ أحمد إسماعيل بعد الحرب قدر ما أحزنه تهاون إعلامنا في إبراز البطولات والإنجازات والانتصارات التي حققتها قواتنا المسلحة في أكتوبر سنة ١٩٧٣، وكان إذا رأى كُتُب الدعاية الإسرائيلية التي تحاول التقليل من آثار انتصاراتنا، هاجت لواعجُ نفسه. ويذكر الأستاذ عبد المنعم الصاوي نقيب الصحفيين في ذلك الحين، أن المشير كان يقول له في استنكار: أتترك معركتنا يشوِّهها عدونا ويعرضها بصورة تخفي خزيه من هزيمة، فيهون علينا ما حققناه من انتصارات؟ نتهاون في تقديمه على وجهه الصحيح، أليس من الظلم أن نحصل على هذا

النصر ثم يستثمره عدونا بدلاً من أن نعمق آثاره في عقول الناس وضمائرهم!

على أن الرجل قد بذل وسعه في هذا المجال أيضا، فدعا الصحفيين إلى الجبهة وأشهدهم على عظمة قواتنا المسلحة وروعة انتصاراتها، ولبّى دعوة نقابة الصحفيين، وحدّثهم عن حرب أكتوبر، وألّف - بتكليف من الرئيس السادات - لجنة عسكرية سجّلت للتاريخ كل أحداث الحرب.

أمّا فضلُ أحمد إسماعيل، على الإعلام العربي، ففضل لا يعدلُه فضلُ كثير من الإعلاميين، ولو جُمعت جهودهم إلى بعضها جميعًا، ذلك أن هذا الرجل قد عبر بالإعلام العربي من مرحلة التضليل إلى مرحلة الصدق واليقين، وما بالك بالإعلام في يونيو سنة ١٩٦٧ يُصوِّر للناس الهزيمة الساحقة التي وقعت في اللحظات الأولى على أنها نصر مؤزّر، ثم يمضي فينمّي هذا النصر طيلة أيام خمسة، يزيد في كل نشرة إخبارية من عدد الطائرات التي أسقطناها للعدو، ومن عدد الدبابات التي دمرناها للعدو، ومن عدد

الجنود الذين أسرناهم وقتلناهم من العدو، بينما العدو مشغول عن ذلك كله لا بالحرب، وإنما بتوزيع الأسلاب والغنائم وتثبيت الأقدام والركائز.

أما جيشنا في السادس من أكتوبر فيصدر البيانات بيانًا تلو الآخر، يُعَبِّر عن الواقع من وجهة نظر محايدة، لا تبدي فرحتها بنصر، ولا غُرورها بقُدْرة، ولا زَهْوَها بجولة، وإنما تلخِّص البيانات العمليات الحربية، مُعطية الحقائق كاملة، بل تقلل من حجم انتصاراتنا زيادة في الدقة، حتى استمع المواطن العربي من إذاعاته إلى حجم انتصار يقل عمَّا تصوِّره إذاعات الأعداء والدول الكبرى، وعندئذ أدرك الناس أن إعلامهم قد تحوَّل إلى مرحلة أخرى رائدُها الصِّدق، ويسودها الحق، وتبتعد عن الضلال والتضليل اللَّذَيْن كانا يُسيطران عليها من قبل.

حماسة النصر الحقيقية

ولم يطلب الجيش في سنة ١٩٧٣ من إذاعاتنا أن تفرض على مسامع الجماهير الأغاني الوطنية ولا أناشيد القتال،

وإنما ذهبت الإذاعات العربية ساعة بعد ساعة تأتي الناس بما اعتاده من برامجها في الأيام العادية، حتى إذا جاء وقت إذاعة الأنباء أذيعت في صوت لا تشع منه الحماسة الجوفاء، وإن شعت منه الحماسة التي تصل في يسر وسرعة إلى القلوب الحساسة لحماسة النصر.

من دون شبهة ضرر

وفي خلال الإعداد للحرب أمر أحمد إسماعيل أن يوجد المحررون والمراسلون العسكريون مع القوات المسلحة قبل لحظة العبور، لكن رجال الأمن الحربي قدّروا- من خلال مسئولياتهم- أن هذه الخطة قد تؤدّي إلى تجمع المراسلين والمحررين العسكريين بشكل قد يسفر للعدو عن نية الهجوم والاستعداد لعمل عسكري كبير، ولم يتدخّل المشير في عمل رجال الأمن الحربي، بيد أنه عمل قدر طاقته على تحقيق هدفه من دون شبهة ضرر.

المحتـــوى

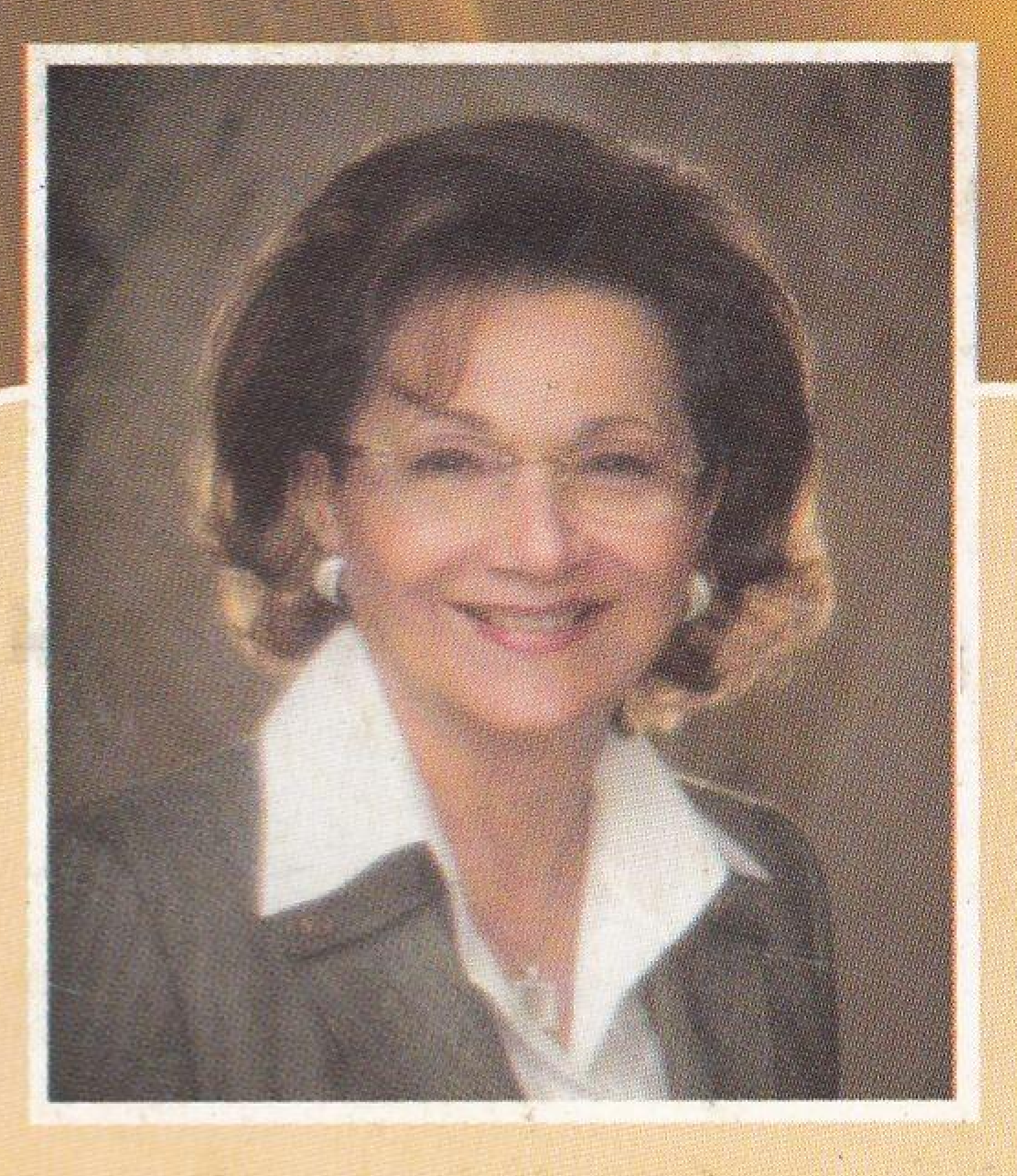
(مهرجان القراءة للجميع)

من إصدارات المجلة
بالتعاون مع المجلس القومي للشباب
(قمم مصرية)

- توفيق الحكيم، عصفور الشرق المغرِّد	محمد رجب
- زكي نجيب محمود، نموذجًا للعقل والتنوير	د. عصام زكريا جميل
- صلاح عبد الصبور، ضمير الشعر المصري	عبد الناصر عيسوي
- سهير القلماوي، سيرة ثقافية	عبد التواب يوسف
- محمود مختار، مَثَّال مصر	صلاح بيصار
- علي مبارك، رائد التحديث في مصر	محمد السيد عيد
- عبد الله النديم وحلم الوطن	علي ماهر عيد
- رفاعة الطهطاوي، رائد النهضة	محمد الشافعي
- محمد عبده، رائد الإصلاح والتنوير	د. عوض الغباري
- الليث بن سعد، الفقيه المصري	عبد الناصر عيسوي
- أحمد عرابي، زعيم الكرامة الوطنية	د. محمد عفيفي
- المازنى.. أديب فوق العادة	نشأت المصرى

- د. حامد جوهر.. ملك البحار   د. حافظ شمس الدين عبدالوهاب
- دكتور على إبراهيم.. رائد الطب المصرى الحديث   د. محمد الجوادى
- الأميرة فاطمة إسماعيل.. وحلم الجامعة المصرية   د. إيمان عامر
- أحمد زكي أبو شادي.. بين العلم والأدب   علي عيسي
- سعد زغلول.. حكاية شعب   إبراهيم عبد العزيز
- أحمد شوقى.. أمير الشعراء   د. طارق عباس
- أحمد حسن الزيات.. منار الفكر والثقافة   عماد الدين عيسى
- عبد المنعم رياض.. رمز العسكرية المصرية   أميرة فكري
- المشير أحمد إسماعيل.. من الميلاد حتى النصر   د. محمد الجوادي

يصدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
المجلس القومى للشباب



ينعم الإنسان بشعور
الألفة بينه وبين المجتمع
الذي يحياه ويحيا فيه،
حين يفتح أفقًا أمام
الحاضر والمستقبل،
باستيعابه المعلوم، وإدراكه
المجهول، وحين يقرأ لنفسه، ويقرأ للآخرين، فكل قراءة
تجدد المعرفة تحررنا من العجز أمام المشكلات، وتمنحنا
طاقة الإمكان على تحسين الحياة، بأن نوظف معارفنا
لكل ما هو نافع ومفيد، فالمعرفة أهم وأغنى وأق
ما يمكن أن نمتلكه في الحياة، ففي ظلها يزدهر ع
الإنسان، ووعيه المتجدد الحضور، فتتعدد لديه الإبداع
والإنجازات، وينتج الموارد والثروة، ويصنع القوة، وتت
أمامه كل المجالات. إن من يحسن القراءة يحسن ممار
الحياة. لذا، كانت وستظل دعوتي أن نقرأ للحاضر..
نقرأ للمستقبل.. أن نقرأ للحياة.

سوزان مبار